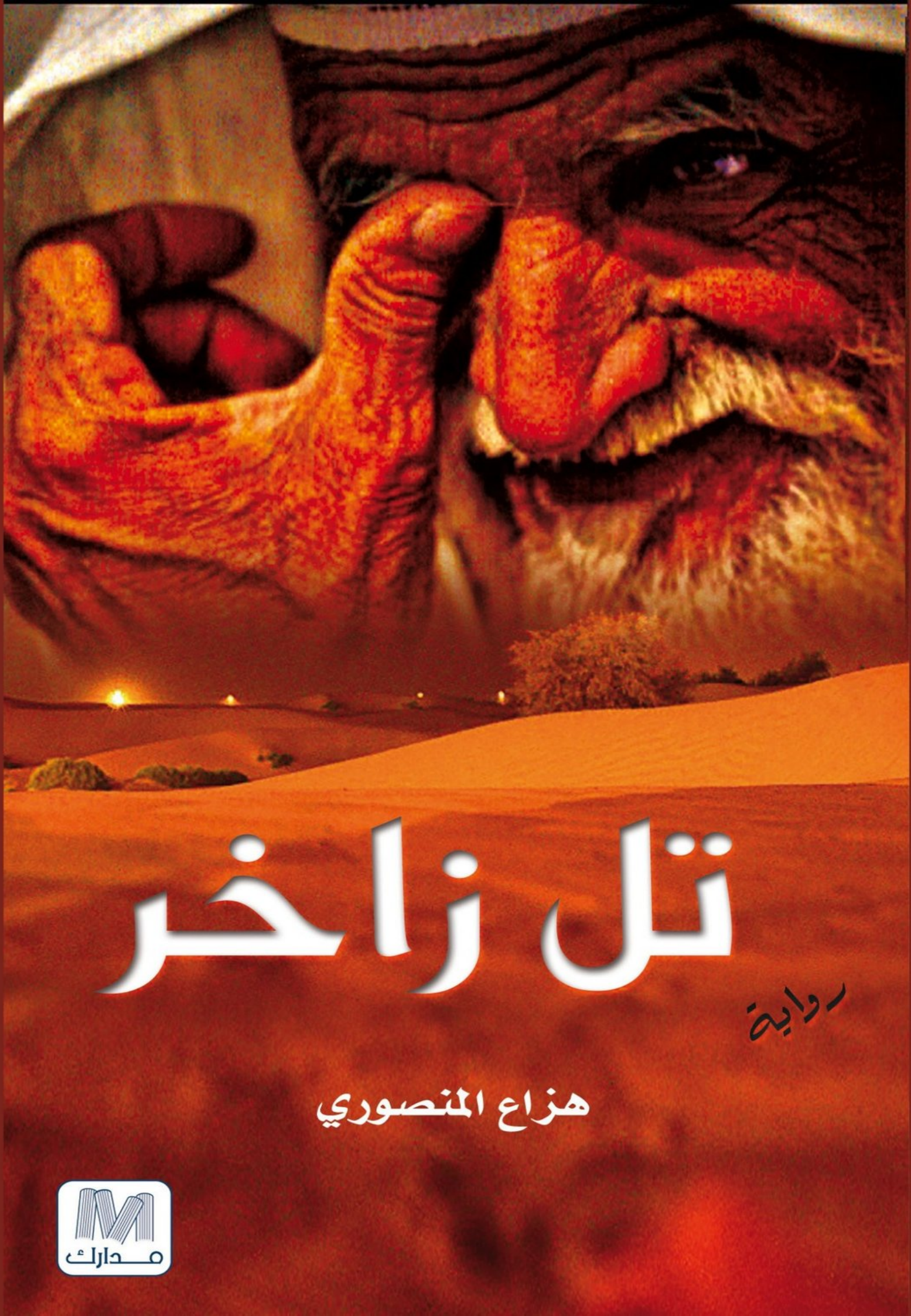

تل زاخر

رواية

هزاع المنصوري

مدارك

هزاع المنصوري

تل زاخر

رواية

دار مدارك للنشر والتوزيع

بدأ المساء يهمسُ حكاياته البيضاء في " زاخر" تلك المنطقة الصغيرة، الواقعة في جنوب مدينة العين، حينها ظل الفتى يسبرُ فكره غائصاً في أعماق ذهنه مفتشاً ما بين ذكرياته الأزلية عن حلمٍ لا يزال عالقاً بجمجمته، مترسباً في ذاك الدائري، حاملاً كماً من الأفكار والأحلام والآمال كأنه عالمٌ آخر، أشبه بكرة الأرض، لكن بصورة أصغر، بداخله يجمع كل تلك التحركات الكونية المريبة.. وما بين تلك الأحلام المتطايرة هناك حلمٌ عالقٌ بين حصاتي الرأس، ودفتي كتاب العقل، تنقلب صفحاته كلما عصفت رياح، أو داعبتها نسمة خفيفة من مهب سائر.

على تل "زاخر" المتراكم المتكاثف، في ليلة تلألأت فيها السماء بالنجوم اللامعة، واحتضنت الغيم الهادئ كلوحة رسمتها ريشة فنانٍ مبدع، وبصوتٍ عذب يجر الأحاسيس الحزينة المبعثرة، من بحة صوتٍ بها معاناة وأسى مكثت في القلب السقيم:

كم عذلت القلب من همٍ عنيد
ما وجدته غير في همومٍ عصيبه
العنا و الشوق و الخل البليد
جاوز حدود التجافي في مغيبه

وفي لحظة تجسدت فيها ملامح البراءة:

- أبي.

رأسه على فخذ أبيه وعيناه تبحلقان في السماء الصافية، وتحلقان بين النجوم:

ـ ما معنى الحب؟

ينظر الأشيب إليه ويبتسم ثم يضع يده على رأس الفتى ويقول:

- أسمى ما في الوجود يا بني، وأجمل ما خلق على وجه الأرض هو الحب الصادق من القلب إلى القلب.

ـ وهل النجوم تعشق بعضها بعضاً؟
ـ لمَ لا؟ قد نرى أناساً جاؤوا إلى الدنيا وذهبوا بصمت وهم يعشقون، ولكن أسماءهم سطرت على مدى التاريخ.
يا بني.. الصمت والهدوء ليسا دليلين على الابتعاد والتوحد والخوف من المجابهة والمواجهة، فالنجوم تعشق والكواكب تعشق وكل ما على الأرض يعشق، وأنا أؤمن بما يُسمى العشق الهادئ.
ـ وما العشق الهادئ؟
ـ انظر إلى النجوم وتمعن كيف تعشق، وكيف تهوى، بكل صمتٍ وهدوء.
ـ وهل للنجوم أن تعشق من طرف واحد؟
يتصنع الأشيب الابتسامة المزيفة بعد ما هيّض السؤال قريحته ومشاعره المبعثرة الهائجة بداخل الصدر الحزين:
ـ للأسف لا يا بني، كل ما حولك يعشق ويُعشق إلا البشر..
ـ يعشق ويُعشق إلا البشر؟! وبكل دهشة وتعجب، لماذا؟
ـ انظر يا عزيزي، فالبشر حسب الأمزجة والمشاعر والأحاسيس المتقلبة المتغيرة من حين إلى حين، وكل منهم يهوى بهواه، ولا يُحكم قلبه بصدقٍ وشفافية.
ينظر الفتى إلى أبيه، نظرة استفهامية تحمل كمَّاً من الأسئلة الجامحة الشاردة الراسخة بزاوية الذهن:
ـ وماذا عن الذين عشقوا ثم هلكوا ثم ماتوا وهم يعشقون؟!
تبسم الأشيب ضاحكاً بصوتٍ لا يتعدى حوله، بما يحمل من شعورٍ غامضٍ مجهول، ويقول:
ـ ها أنت، تقف على المصب نفسه الذي تتشعب منه الأسئلة وتتفرع، وكلمة العشق وصفٌ أكبر من المفردة نفسها، ولا يفهمها ذوو القلوب الهشيشة الركيكة.
وللعلم ما يهلك الفرد في حياته ويتركه بحالة تذمر ليقضي ما تبقى من عمره بمعاناة وأسى، حين يهوى القلب شخصاً لا يستحقه فيشقه، وحين يعشق القلب قلباً كالحجر، بليد المشاعر يزيد الضجر، ها هو الطرف الآخر بعينه.
نهض الفتى ليجلس معتدلاً مقابل الأشيب، وعيناه لا تفارقان عينيه، وقال:
ـ وهل هناك أناس يفهمون معنى الحب الصحيح؟
ـ طبعاً يا بني، فالحب هو الحياة، كمثل الأكسجين يحتاجه الجميع، يسري في الدم وما بين الشرايين وإلى القلب، ولا حياة لمن لا يفهم معناه، فيا بني...
ـ عذراً أبي! ما بهما عيناك؟
ـ لا شيء، فقط بعض من الأتربة الخفيفة المتطايرة في الهواء، ويجب أن نمضي قبل أن تزداد الرياح سوءاً ونحنُ على التل.
فأمسك الأشيب بعصاه ليقف بها، فوجه الفتى إليه سؤالاً يجس المشاعر ويحرك الأشجان الخفية.

ـ كيف كانت والدتي معك؟
خرَّ الأشيب جالساً ويداه ترتعشان لا تقويان على الإمساك بالعصا، والشوق يتلاعب ويتراقص في عينيه، ثم وضع يده على كتف ابنه وقال:
ـ رحمها الله وأسكنها فسيح جناته، مكثتُ معها وخضتُ أول وآخر قصة حبٍّ تبقى ما دمت حياً، فهي الحب ومنها الحب وإليها الحب كله.. رحمها الله.
قالها بصوتٍ حزين تغلب عليه الذكرى المؤلمة.
ـ وهل ستعشق وتحب غيرها؟
ـ لا أظن ولا يظن قلبي كذلك، لأن وجودها احتل مساحة شاسعة في القلب، وغيابها لم يترك حيزاً ليسكنه غيرها.
وفجأة.. ذات لحظة غضب لا شعورية وبصوتٍ يحمل نبرة الحزن الخاشع المتخشع.
ـ وماذا عن السائق المذنب الذي أودى بحياة والدتي وكاد يهلكنا جميعاً ويودي بحياتنا إلى الجحيم؟
ـ الحمد لله على كل حال، وهذا قضاءٌ ولا مرد للقدر، والسائق نال جزاءه من حيث القانون.
ـ أي قانون هذا؟ ها نحن نتألم كل يوم ونرضف الحزن فوق الحزن ونمسح الدمع، والسائق أفرج عنه بمجرد اتصال الشخصية المهمة حتى لم يمكث ثلاث ساعاتٍ في الحبس.
ـ ولكن لا تنس الشخصية المهمة التي تتحدث عنها بادرت بالاتصال بنا، وقامت بالاعتذار نيابة عن السائق نفسه، وقدم لنا المال، وفوق هذا ألا يجب أن نؤمن بالقضاء والقدر، ونسامح؟
ـ نسامح على ماذا؟ شخص طائش متهور لا مبالٍ لآداب الطريق يعتمد على معارفه وشخصياته المهمة.
ـ يا بني، اجعل قلبك مسالماً ليناً سريع العفو والمغفرة، فأنا لم أنسَ والدتك قط، ولم أعشق امرأة سواها، ولن يتراوح حبك ويتجاوز حبي لها، فالاختبار صعبٌ على من يجتازه ليفوز.
ثم نهض الأشيب واقفاً وهو يشير بعصاه.
ـ يا بني، انظر إلى هذا الكون الواسع الرحب، فلا بد من أن تمرّ عليك مواقف تحتاج فيها إلى صبر، ويجب أن تصبر، حتى لو بات قلبك هشيماً.
وبدأ يتحرك بمحاذاة الفتى متجهين إلى المنزل.
ـ أبي!!
ـ نعم يا بني؟
ـ أخي أحمد متى سينتهي من الدراسة ليعود إلينا؟
تبسم الأشيب قائلا:
ـ اشتقتَ إليه؟
ـ كيف لا؟ وهو أخي الأكبر، تربينا وعشنا في كنفٍ واحد.. صحيح يتصف بالثرثرة الزائدة ولكنني أحبه، وأقرب الأصدقاء إلى قلبي.

قالها الفتى بأسلوب السخرية، والأشيب يضحك قائلاً:
ـ جميل حين تشعر بأن لديك أخاً صديقاً يكون لك (كالصندوق الأسود).
ـ وما الصندوق الأسود؟
ـ أعني أن يحمل جميع أسرارك ويساعدك على حل مشكلاتك التي تواجهك ويبادلك فوراً بالحلول البنّاءة ويدرأ عنك دون أن يشعر أحد بكونه أخاك الأكبر، ولا يجعلك تسعى إلى البحث عن صديق خارج المنزل ليشمت بك وينتهز لحظة ضعفك.
ـ آآه.. فعلاً زدت شوقاً لأرى أخي أحمد، الآن منذ ثلاثة أشهر لم أره.
ـ وأين المشكلة يا بني، الآن أنت في إجازة، وبلغت سن الرشد كما يقال بما معناه يعتمد عليك، فسافر إليه لتقضي أياماً عدة منها، لتراه من ناحية، ولتزيح عن صدرك التراكمات النفسية من ناحية أخرى.
فوقف الفتى من هول الصدمة ينظر بصمت إلى الأشيب، ثم نظر الأشيب إلى الخلف.
ـ ما بك؟
ـ أبي أنا أسافر إلى أستراليا؟!
ويشير بأصبعه السبابة إلى صدره، ثم يضحك قائلاً:
- أنا الشخص الوحيد الذي لا يعشق السفر ولا يطيق الطائرة إطلاقاً.
بادر الأشيب ليكمل طريقه والفتى بدأ التحرك خلفه.
ـ وهل تخشى الطائرة؟
ـ لا ولكن... اممم..
ـ ولكن ماذا، أكمل؟
ـ لا أعلم ما أقول
ـ ألا تطمح إلى تكملة دراستك خارج البلد، ثم تأتي ومعك الشهادة العليا التي تفتخر بها وأفتخر أنا بك أيضاً؟
ـ أجل، ولكن لماذا خارج البلد يا أبي؟ الآن ولله الحمد تتوافر لدينا كل الجامعات في الدولة، وكل التخصصات متاحة مع كل الوسائل العلمية المتطورة وبشهادة عالمية، لا داعي للتغرب والسفر والابتعاد عن الوطن.
ـ ما معنى كلامك؟ هل تصر على إقناعي بأنك لا تخشى الطائرة؟
تبسم الفتى لعدم قدرته على المراوغة في الأسئلة، ولدهاء والده، وليعلن الانسحاب بطريقة غير مباشرة دون أن يشعر الخصم بتجنب السؤال..
ـ أبي ما يعني لك البحر؟
ـ البحر!! كالصاحب اللئيم.. إن واجهته حضنك، وإن أقفيت عنه طعنك، لا أمان له.
وبقيت مسافة قليلة للوصول إلى المنزل.
ـ وكيف توفي عمي يوسف في البحر؟
ـ رحمة الله عليه، كان من عادته أن يرتاد البحر للصيد بسبب الفاقة.
وذات يوم ذهب للصيد من البكور، حسب ما وردني من العاملين لديه، فصعد على متن قاربه الصغير ولم يشغف لأي شخصٍ يعاونه على غير

العادة، وبعد عشر ساعات من ارتياده البحر كأنني أحسست بأن أخي حل به أمر، لأننا اعتدنا على اتصاله بشكل مباشر أو كل ثلاث ساعات على الأقل، وحين أبادر بالاتصال به لا يجيب، فراودتني أفكارٌ جعلتني أذهب إلى منزله لأُفاجأ بأنه لم يأتِ منذ خروجه للصيد، فتوجهت مسرعاً إلى موقعه، حيث يوجد مع العاملين لديه، ففوجئنا بـ(كركاس) أحد العاملين لديه وعيناه ينتابهما القلق، فسألته عن أخي فأخبرني أنه لم يرجع منذ عشر ساعات تقريباً، فتوجهت مسرعاً إلى أقرب أصدقائه محمد ليشاركنا البحث لامتلاكه مركب صيد. وبعد ساعة من البحث المتواصل وجدنا قارب يوسف ولم نجد يوسف نفسه.

ـ وإلى الآن لم تجدوه؟

ـ نعم، إلى الآن لم نجده.

ـ يا له من بحرٍ غدّار.

فور اقترابهما من المنزل، قرر الأشيب تلطيف الجو بعيداً عن الآلام والمآسي وتقليب الأوجاع.

ـ انظر يا بني الآن! لا تخشَ الطائرة فحسب بل كل ما يوجد على الأرض يسبب الأذى والمخاطر، مثل البحر والسيارات والسفر، فاجلس في المنزل ولا تتحرك كي لا يصيبك أي مكروه.

ضحك الفتى لعلمه أن الأشيب لم ينسَ ويتجاوز حيلته وتجنبه للسؤال الذي يخشاه.

وصلا إلى المنزل بعدما قضيا وقتاً ممتعاً في التسلي بالأحاديث الشيقة، كصديق يتحدث مع صديقه بكل محبة وصدق وحنان.

ـ هيا يا قرة عيني اذهب واستحم لكي نتناول معاً بعضاً من الطعام.

ـ حسناً يا أبي، ولكن فعلاً شيء جميل حين يدرك الفرد مدى التأمل والتفكير ويسارع إلى الابتعاد عن ضجيج المدينة وازدحامها الذي لا يُطاق والمكوث بعيداً في الأماكن الواسعة الهادئة. فكم سعدت يا أبي بمصاحبتك.

عينا الأشيب يملؤهما السرور والبهجة لتقربه من ابنه حمد، ومن ثم قدرته على الدخول إلى قلبه دون استئذان، فربت على كتفه قائلاً بكل هدوء وراحة بال ممتزجة بالحنان والتراكم العاطفي.

- هيا تحرك، لكيلا يستغرق الوقت طويلاً وغداً تستيقظ متأخراً كعادتك.

- حاضر يا أبي، ولكن..

- ولكن ماذا بعد؟

الفتى يقول مبتسماً:

- يوم غد معظم تلاميذ الفصول سيأخذونهم في رحلة إلى مركز أبوظبي الوطني للمعارض وأغلبهم سيغيبون عن المدرسة، ولماذا لا أغيب؟

- وهل سيأخذون فصلكم إلى الرحلة؟

- لا..

الأشيب ينظر إلى الفتى نظرةً تحمل شحنةً كهربائية جمعت بين الموجبة

والسالبة تعني (ليتني لم أسمع ما قلت).
- يا بني، أعرفك جيداً أنك تلميذ ذكي ومتفوق في الدراسة ومصغٍ جيد للمدرس، ولو لم تكن كذلك لالتمست لك العذر فيما بدر منك.

فتبسم حمد بعدما تبين اليأس في عينيه لعدم استطاعته إقناع أبيه، ومن ثم تبيين مبرر غيابه، ولكن الأشيب سرعان ما تصرف بعقلانية الحكماء وبحرص إذ لم يكلف الفتى فوق طاقته نظير ما تفوه به، أو عدم إرغامه على الذهاب إجباراً وطوعاً، بل أمسكه من يده وشجعه ومنحه جرعات الفيتامين المضادة للتفكير السلبي..

- حسناً حسناً يا أبي، لكن لديّ يقين بأننا غداً لن ندرس أي شيء من المواد.
- وأنا لا يهمني ما تدرس يا حمد، كل ما يهمني أن أراك تشعر بالمسؤولية.
وبنظرة استفهامية مألوفة من الفتى قال:
- وما الشعور بالمسؤولية يا أبي، كوني تلميذاً مجتهداً كما قلت؟
- لا أنكر اجتهادك ومثابرتك، ولكن الإحساس بالمسؤولية لا ينحصر فقط في الدراسة والتحصيل العلمي، بل يا بني حين يصحو الطالب مبكراً وينوي الذهاب إلى المدرسة طوعاً دون أي ضجر أو ملل، هنا بداية الشعور بالمسؤولية ولا ينتظر " الشارة " ليغيب.

أخفض حمد رأسه قليلاً لإحساسه بالذنب ويقينه بأن كلام أبيه هو عين الصواب، والاجتهاد ليس فقط بالنجاح، بل بالإحساس بالمسؤولية ثم رفع رأسه:
- أنا آسف يا أبي، ووعد مني: لن أفكر في مثل هذا الشيء إطلاقاً.

الأشيب وهو يربت على كتف الفتى:
- أثق في أنك على قدر المسؤولية.
وفي اليوم التالي كان المعلم خالد مدير مدرسة الزايدية للبنين جالساً إلى مكتبه الواسع المعطر والملطف برائحة العود الفاخر.. يقرأ الصحيفة ويتصفح الأوراق بتمهل وروية، ويحتسي كوب النسكافيه الدافئ..

المدرسة هادئة وساكنة وبعض التلاميذ في فصولهم منذ بداية الحصة الثالثة والمتبقي منها خمس عشرة دقيقة..
وفي أحد الفصول (2/12) كان التلاميذ لديهم حصة فراغ وفي اللحظة نفسها سارع الخطى لمراقبتهم معلم من مادة أخرى لكيلا يصدر عن التلاميذ أي إزعاج يؤثر في بقية الفصول.
فقام المعلم عبد المجيد بتضييع الوقت مع تلاميذ الفصل لكيلا ينتابهم

الملل فبدأ بطرح بعض الأسئلة عن أسمائهم وعشائرهم، للتقرب والتعرف أكثر إليهم.
لفت انتباه الأستاذ تلميذ يجلس بزاوية الفصل ويستند إلى الجدار وعيناه تنظران إلى سقف الفصل وخيول فكره تصهل وتجمح خارج السرب..
فأشار إليه الأستاذ عبد المجيد بطرف من إصبعه السبابة:
- أنت.. ما اسمك؟
فوقف التلميذ وهو في قمة الهدوء ونظرات البؤس بادية في عينيه..
- أنا سلمان حسن
- سلمان حسن فقط؟ سلمان حسن من؟ وهو ينظر إليه بكل كبرياء..
- سلمان حسن البيادي
وجميع تلاميذ الفصل يحملقون بأعينهم إلى التلميذ والمعلم، ويخشون أن يهمسوا أو يصدروا أي صوت، وكان من أسباب خشيتهم عنف وقسوة المعلم عبد المجيد..

فرجع المعلم يقول وبملامح وجهه العابس المكتئب المكفهر:
- سلمان.. ماذا يشتغل والدك؟
التلميذ لا يزال واقفاً وينظر إلى المعلم. ولكن خانه التعبير من شدة الهول ولم ينطق بحرف واحد..
فردد المعلم بصوت عالٍ
- ماذا يشتغل والدك؟
والتلميذ لا يزال ينظر إلى معلمه وعيناه تغرورقان بالدمع السائح المخفي على الخد..

وبعد لحظات صمت قال له:
- سلمان.. ألا تعلم ماذا يشتغل والدك؟ وهل يعقل فتى في الصف الثاني عشر لا يعلم مكان عمل والده؟ أم لا تعرف والدك أساساً؟!
ويضحك بصوت يثير المشاعر الهائجة المبعثرة من شدة الآلام المكبوتة في النفس الحزينة..

فرفع التلميذ رأسه من بعد ما كان منخفضاً وقال:
- سيدي الفاضل، أنت تتكلم عن والدي وعمله.. وكيف يعمل وهو تحت التراب؟!
فتزلزل المعلم مصدوماً بالكارثة التي سببها للتلميذ وجعلته يتذكر بعض المآسي الممضة.
وسرعان ما وقف حمد برجاحة عقل لينقذ ورطة المعلم ويخرجه من المأزق الذي وقع فيه وأغلق جميع الأبواب في وجهه وليعيد ترتيب وصياغة مشاعر زميله الهائجة..
- أستاذي ألا تتذكر سلمان صاحب أجمل صوت في المدرسة والذي حصل

على المركز الأول في مسابقات عدة، وهو الذي يلقي الأناشيد كل صباح في إذاعة المدرسة ويمتلك موهبة جميلة تصعب على الفنان المتمرس تأديتها في بعض الأحيان، وهي "الشلة الإماراتية"؟

تبسم المعلم حين أدرك أن الفتى تحدث في وقته وأزاح عنه عبئاً كوزن الجبل، وقال بأسلوب التصنع الغامض وهو يلتفت إلى سلمان..
- فعلاً ما يقوله حمد!! والدهشة ترتسم على وجهه، أأنت الذي نستمع إلى صوته كل صباح بتمعن ولك كل آذان مصغية ؟!
فرجعت الحيوية إلى وجه التلميذ وهو يبتسم باستحياء وخجل، ثم قال:
- نعم.. أممم
فقاطعه أحد الطلاب قائلاً:
- أستاذ فليسمعنا صوته إذا سمحت؟
فنظر المعلم إلى سلمان وهو يبتسم:
- ما رأيك يا سلمان.. ألا تتواضع وتسمعنا صوتك؟
سلمان وهو في حيرة من أمره، ماذا سيقول؟ أو ماذا سيؤدي؟ وكل التلاميذ تحملق أعينهم وتبحلق في وجهه..
وفجأة! صدر صوت الجرس كأنه يلبي شعور سلمان الداخلي المتناثر خلف ذاك الصدر الدفين، وأصدر الرنين بصوت أزاح العبء الثقيل عنه..

المعلم وهو متجه إلى باب الفصل:
- هذه المرة أنقذك الجرس، ولكن لا تحرمنا من سماع صوتك المرة المقبلة.
التفت أحد الطلبة إلى حمد قائلاً بصوت منخفض:
- ألا تشعر بأن المعلم ندم على ما قاله، ويريد إصلاح ما أفسده بشتى الطرق؟
فنظر إليه حمد وبصوت منخفض كي لا تلتقطها أذن المعلم قبل خروجه من الفصل.
- شعرت، ولهذا بادرت بالترميم قبل التهديم، ولكن لا جدوى، فسلمان لا تزال النار في جوفه هائجة ومشتعلة فلا تخمدها عبارات الكلام العابر، والآن أنت لا تشغل تفكيرك بهذا الأمر اذهب واستمتع بالفسحة مع باقي التلاميذ، واتركني بعضاً من الوقت كعادتي في الفصل.
- ألا تريد أن أحضر لك شيئاً تتناوله؟
- لا، شكراً..

خرج التلميذ وترك خلفه هدوء الفصل وجدرانه التي تزهو باللوائح المعلقة التي سُطرت بها بعضٌ من الآيات والأحاديث والحكم، فجلس الفتى يميل رأسه يميناً وشمالاً ويقلب عينيه حتى غاص بغفوةٍ جعلت أفكاره الشاردة تتراقص داخل الفصل وقام يسرد بذهنه حكايات وروايات، حيث استقر

الحلم على مرسى الذاكرة، وفي ليلة الحادث المفجع الأليم وما قبل خروجهم بلحظات من المنزل مع والده، استيقظ من نومه مسرعاً إلى الصالة قائلاً:
أمي أمي..
الأم تنظر إليه بابتسامة الحنان والعطف والرحمة ترتسم على عينيها:
- ما بك يا حبيبي؟
- حلمت بأنني أمسك نجمة صغيرة بيدي ثم أكلت قطعةً منها.
تفتّح وجه الأم وكأن البشرى استمطرت عليها سروراً وبهجة وكأنها تمتلك مفاهيم الرؤى والأحلام ثم ربتت على كتفيه قائلة:
- لا تخبر أحداً بما حلمت يا حبيبي واذهب لتغير ملابسك لكي تخرج مع أبيك، وسأطرح عليه الحلم بنفسي، وستعلم بما حلمت.
- حسناً أمي.
حين خروجهم من المنزل وفي بضع دقائق من دخولهم إلى الطريق العام، وتحديداً "شارع الوقن" باتجاه "العراد"، وهي منطقة تحتوي على بعض من المساكن الشعبية والمزارع في مدينة العين، والأشيب دائماً ما يتردد إلى هناك في الأجواء الغائمة، يتجول حول المزارع، مندهشاً باندماج الألوان، وأناقة الطبيعة الخلابة، فتصور له في ذهنه كمعلقة لامرئ القيس حين يقصد في عشيقته، الأحاسيس تتلبس الروح مستوطنةً بذاك القلب المفعم بالعشق..
لكن مفاجآت الأيام لم تخفها خافية، فهناك فاجعة في انتظارهم في اللحظة نفسها على طريق "الوقن" ذاته سائق طائش متهور، وكأنه يقود طائرة على الإسفلت حتى لا يمكن للعين اللحاق بالنظر إلى اللوحة المثبتة خلف المركبة أو معرفة نوعها، قادماً من الخلف، يقترب من سيارة أبو حمد ببضعة أميال، حيث سنحت وقتها الفرصة للأم أن تطرح حلم ابنها المنتظر والفتى في داخله يتراقص شوقاً إلى ما ستبوح به أمه من تفكيرٍ وتفسير..
- موسى، ابنك بشرني بحلم!!
فجأة .. ودون سابق إنذار ليفاجأ الأب بالسائق المتهور خلفه محتفلاً بمصابيح السيارة (الديم) ولم يتبقَّ إلا شعرات صغيرة ويصدمه من الخلف، وبحالة تصرف سريعة لا شعورية من الأب ليتفادى الاصطدام قام بالانعطاف إلى أقصى اليمين وبقوة مما أدى إلى صعوبة السيطرة على المقود والتحكم فيه..

داخل الفصل وبصوت يثير الانزعاج والتشويش، ويد تربت على الخد بلمسات خفيفة متتالية متتابعة.
- حمد، حمد، هيا بدأت الحصة الرابعة، حمد!!
فتح الفتى عينيه والتلاميذ يحدقون في وجهه، والمعلم ينظر إليه بابتسامة قائلاً:

- هيا يا حمد اذهب واغسل وجهك لتستعيد نشاطك وحيويتك، فمادة الرياضيات تحتاج إلى تركيز ذهني..
- حاضر..
وهو ذاهب ليغسل وجهه وعقله يقلب الأفكار تارة ويشقلبها تارة أخرى، بما قد رأى في لحظات غفوته، وربما الغفوة الشاردة السريعة فتحت عينيه على نافذة مغلقة مهملة ومنسية، ثم دخل في حوار مع نفسه..
ما هذا الحلم الذي لم يتح الفرصة لوالدتي أن تفسره؟ وكيف غاب عن ذهني في وقتها؟
طوال الدوام الرسمي وهو منشغل الذهن حتى عاد إلى المنزل..
- السلام عليكم، مرحباً أبي.
- وعليكم السلام، مرحباً عزيزي، كيف حالك؟
- الحمد لله يا أبي.
الأشيب من منطلق الرهان والتفاوض الذي دار بينه وبين ابنه الليلة الماضية وبأسلوب استفزازي هادف..
- كنت في انتظار اتصالك، لماذا لم تتصل بي؟ مادام معظم التلاميذ غائبين، وبعضهم خارج المدرسة كما قلت؟
فطن الفتى المقصود، ثم تبسم قائلاً:
- أبي معك حق، صحيح أن بعض التلاميذ لم يحضروا، ولكن الإدارة سجلتهم غياباً، وبعض المعلمين شرحوا دروساً مهمة قد تأتي أسئلة منها في امتحان آخر الفصل الدراسي..
بعد لحظات صمت لم تطل .. الفتى:
- تذكرت شيئاً لم يراودني من قبل!
الأشيب وبنظرات استفهامية حائرة:
- ماذا؟
- أبي، هل تذكر لحظات الحادث؟
- آآآه، نعم يا بني.. وكيف لا أتذكر؟
- حينها قبل وقوع الحادث بلحظات، والدتي، رحمها الله، قالت لك....
يقاطعه الأشيب:
- ماذا؟
- أني بشَّرتها بحلم، ولكن لم يسمح لها القدر بأن تكمل حديثها، مع أني كنت في انتظارها بشعور متشوق لتفسيرها..
الأشيب وكأنه استعاد الموقف بمخيلته ودارت الأفكار في ذهنه وتراكمت المواجع على قلبه المفطور حزناً وبدأت عيناه تغرورقان بالدمع.
شوقتني إلى الحلم يا بني ألم تذكر ما حلمت به، وما الذي أسعد المرحومة؟

أبي، يومها حلمت بأني أمسك بيدي نجمة صغيرة.. وفجأة..

رن جرس المنزل بصوته المتكرر، حيث إنه يشتت الأفكار ويبعثر الأحداث المنتظرة وكأن الذي خلف الباب يلفظ أنفاسه الأخيرة. فهرع الفتى إلى الباب والأشيب منزعج، وبوقتٍ غير مناسب إطلاقاً، حيث تكون الساعة الثانية والنصف ظهراً قائلاً بصوتٍ منخفض:
- أزعجنا، ألا يمكن له أن يحمل جرس المنزل معه؟
الفتى يفتح الباب وإذا بجارهم أبو سعود وعيناه تحملان كماً من القلق وتجول الدموع داخلهما ويداه ترتجفان خوفاً، وبطريقة التلهف الغامض..
- حمد، ألم ترَ ابني سعود في المدرسة؟
الفتى بصدمة مفاجئة..
- لا، ولماذا؟! سعود لم يحضر اليوم إلى المدرسة؟
الأشيب متجهاً إلى الباب وهو يقترب من صاحبه أبي سعود:
- ما بك، وما الذي حدث؟
- سعود ابني لم يأتِ إلى المنزل منذ خروجه إلى المدرسة..
أمسك الأشيب بيد صاحبه قائلاً:
- لا تقلق، بإذن الله ستجري الأمور على ما يرام، ادخل لتستريح قليلاً، ولنرَ وسيلة أخرى غير الانفعال والتوتر، لكي نفكر فيما بوسعنا أن نفعل. فسعود رجل ولن يضره شيء..
- أعلم يا أبا حمد، ولكن جهازه مغلق على غير العادة ووالدته في البيت منزعجة كثيراً، فهي مصابة بـ"الضغط" وأخاف أن يصيبها مكروه بمجرد تأخره، فقط أريد الاطمئنان عليه..
- خيراً بإذن الله.
فجلس أبو سعود، وإلى جانبه الفتى قائلاً:
- من الممكن أن يكون قد انضم إلى تلاميذ الفصول الأخرى أثناء الرحلة.
الأشيب ينظر إلى الفتى:
- ربما.. ولمَ لا؟ حمد أيمكنك الاتصال بأي من أصدقائك الذين هم في الرحلة نفسها، للتأكد من وجوده معهم؟
- حسناً أبي، محمد الشهري معهم في هذه الرحلة، سأتصل به حالاً.
ولحظة اتصال الفتى، لمعت في عيون أبي سعود نظرات الترجي والرجاء وهو يواصل النظر إلى هاتف حمد، وكأنه يرتجي الهاتف أن يفرح قلبه بالخبر ولا يخيب آماله، والأشيب ينظر إلى صاحبه، ثم يلتفت إلى الفتى ويعاود النظر إلى صاحبه، ثم يرجع بنظره مرة أخرى إلى الفتى وكأنهم في انتظار الخبر بخوفٍ صامتٍ هادئ، وأم سعود من جهة أخرى ترتجفُ مشاعرها وينتفض جسدها كسمكة سَلْمون قفزت فزعةً خارج الماء أملاً بالنجاة من خطر يطاردها..
هاتف التلميذ لا يجيب للمرة الثانية من الاتصال، ثم وقف الأشيب قائلاً:
- سأحضر رقم مدير المدرسة وسأبادر بالاتصال به..
أبو سعود قائلاً:

- من المؤكد أنه يعلم أن ابني حضر أم لا؟
الفتى لا يزال يتصل بزميله ويأمل بالرد عليه..
الأشيب وهو قادم
- حمد، ها هو رقم المعلم خالد، اتصل به وأعطني إياه.
- حسناً ..تفضل
أمسك الأشيب بالهاتف ويداه ترتجفان قلقاً على ابن صاحبه.. استجاب المعلم للرد ولم يتأخر:
- آلو
- آلو، السلام عليكم.

- وعليكم السلام.
- أستاذ خالد، كيف الحال؟
- الحمد لله، عفواً من المتحدث؟
- أنا موسى والد حمد الجهاري.
- أهلاً وسهلاً، سعدت باتصالك أخي موسى.
- وأنا كذلك، لكن لدي استفسار، ابن جارنا أبو سعود لم يحضر إلى المنزل منذ انتهاء الدوام.
- حسناً إن شاء الله خير، لحظة من فضلك لأرى كشوفات الرحلة.

وبعد خمس دقائق:
- أخي أبو حمد، التلميذ سعود السبهان مسجل اسمه لديّ في سجل الغياب.
- أعلم، لأنه في فصل ابني حمد، ولم يحضر اليوم إلى الفصل ولكن ربما دخل الحافلة ولم يشعر به أحد.
- حسناً أبو حمد، سأعطيك رقم الأستاذ فتحي المشرف على الرحلة، اتصل به وإن شاء الله خير، وأنا حالياً في وزارة التعليم لديّ بضعة أمور، ومتى أنتهي سأتواصل معكم.
- شكراً لك أستاذ خالد.

أبو سعود بأعصاب متوترة، مشدودة، كأن لهيباً يوقد من تحته، والزوايا تضيق به من كل الجوانب، يشعر بظلامٍ يغشى عينيه وكأن لا أحد يجلس حوله.
أخذ الفتى الهاتف للاتصال بالمشرف المسؤول عن الرحلة، وبعدها أعطاه الأشيب حين تم الرد من المشرف:
- آلو..
- السلام عليكم
- وعليكم السلام، أهلاً

- أستاذ فتحي، هل يوجد معكم طالب اسمه سعود؟
- يوجد أربعون تلميذاً معي الآن في الحافلة، لحظات لأرى الكشف.
- حسناً
- لدينا خمسة تلاميذ أسماؤهم سعود، عمّن تسأل بالضبط؟
- سعود عبيد السبهان!
بصوت ينخفض شيئاً فشيئاً وهو يتمتم:
- سعود السبهان، سعود السبهان، سعود السبهان.. إلخ
وفي هذه اللحظة كان قلب الأشيب يخفق كجناحي طائر..
- نعم موجود
فتبسم الأشيب فرحاً وهو يحمد الله:
- شكراً لك.. شكراً لك.
حينها أيقن أبو سعود أن ابنه ذهب مع تلاميذ الفصل الآخر إلى الرحلة، ثم أمسك بهاتفه لكي يبشر أم سعود..
- آلو..
ترد عليه وبصوت يُظهر المشاعر القلقة:
- ماذا جرى؟
- اطمئني .. اطمئني، إنه ذهب مع زملائه في المدرسة إلى رحلة.
- الحمد لله، سيرى ما سأفعل به حين يعود.. قالتها بأعصاب قد فارت قلقاً وخوفاً.
بعدها أغلق أبو سعود الهاتف ثم وقف قائلاً:
- اسمحا لي على ما فعلته بكما، فكم تعبت نفسياً ولم أشعر برجلي حتى إنهما قذفتاني بينكما.
الأشيب يبتسم محبةً وتعاطفاً:
- لا شكر على واجب يا صاحبي .. وسعود ابنك مثل ابني حمد ونحن لم نفعل شيئاً بعد..
- شكراً أخي موسى

عاد أبو سعود إلى منزله وهو مرتاح البال من بعد تلك الأفكار التي راودته وتركته في توتر مع الجيران، ولم يجلس معهم لتناول الغداء..
وبعد الغداء.. ذهب الأشيب ليقضي ما تبقى من قيلولته، فهو معتاد على أخذ قسط من الراحة في مثل هذا الوقت حتى يقبل المساء.
جلس الفتى وحده في الصالة وعيناه تحلقان في فضائها الرحب وتصفقان بجناحيهما ما بين الجدران، إلى أن استقرتا بالنظر والتركيز على صورة معلقة في قلب الجدار، وينبض حباً لها وشوقاً يجس المشاعر ، حيث أحس في داخله بشيء لا يعلم كيف يخرجه ويسطره وينسجه إلى الواقع، متحدياً نفسه مسرعاً بإحضار أوراق بيضاء وهو يمرر القلم بين أصابع يده

حزناً من وخزات الألم، وشوقاً يخفي ألم الفراق، إلى أن أمسك بالقلم بموضعه الصحيح، ثم كتب:

و لــو التعابيــر اخــذلنـي
تبقى يا (زايد) في كياني
ذكــرى تشــل الروح مني
ولا تغــادرنــي ثــوانـــي

ثم يعاود النظر إلى الصورة المعلقة وعيناه تزدادان اشتياقاً والقلب ينفطر حزناً، ثم يخفض رأسه ليسطر ويكمل ما تبقى من إحساس زلزل ما في الصدر:

يا شيخ في ذكراك حزني
صـــروح ومشيـــد مباني
ما ني بخيـــر والله إنـي
في داخلي جرح شجاني

وكأن المشاعر جاءت متسلسلة متتالية من دون تفكير عميق وبذل أي جهد ذهني، وكأن الحوار ارتجال ما بين الفتى والصورة:

لــو كــان بيفــيد التمــني
ما كــان وقــفت الأمــاني
أعيـــوني اللــي يهمـــلني
أصدق مشاعر من لساني
و ختــامها يــا والله إنـي
حزيــن والحزن اعتراني

ثم وضع الورقة على الطاولة التي أمامه وفوقها القلم وعاود النظر إلى الصورة متأملاً في هذا الشخص القائد الأب المعلم الذي أحبّ شعبه بصدق فأحبوه، وبعد لحظات من الصمت التأملي وبصوت بيّنٍ.
- الله يرحمك يا أبي الشيخ زايد، أحببتنا فأحببناك.
ثم وقف متجهاً نحو هاتف المنزل ليبادر الاتصال بزميله سلمان كالعادة وليقضي معه وقتاً من التسلية، فسلمان صوته عذب حين يشدو، فيطرب ويجذب كل أذن ويجبرها على الإصغاء، وحمد كثيراً ما يسعد ويحلق بعيداً بفكره وأحاسيسه حين يستمع له.
ردت والدة سلمان على الهاتف:

- آلو..
- آلو، " مرحباً"
- وعليكم السلام، من المتكلم؟
- حمد، زميل سلمان في الفصل.
بكل فرح وحنان الأمومة العاطفي الفائض، قالت:
- حمد موسى، كيف حالك يا بني؟
- الحمد لله عمتي.
- وكيف الدراسة معك؟
- الحمد لله، حالياً نحن في إجازة استعداداً للاختبارات النهائية.
- الله يوفقكم ويكتب لكم الذي فيه الخير ويسعدكم.
- آمين.
- ثواني، سلمان في غرفة نومه سأناديه لك.
- حسناً في انتظاره.
وبعد دقائق
- آلو..
- أهلاً سلمان، أين أنت؟!
- بسم الله، ما الذي حدث؟
ثم يضحك حمد قائلاً:
- يا أخي، ولهنا على صوتك.
- حمد، زلزلتني.. وأنا أظن أن طارئاً ما قد حدث لك.
- لا، فقط أحببت الحديث معك بعضاً من الوقت.
- حاضر، طيب تفضل؟
جلس حمد معتدلاً ليطرح فكرته المراوغة وهو يبتسم..
- إذن، إن لم يوجد لديك أي عمل تعالَ عندي المنزل.
فتبسم سلمان:
- ولماذا، لديك قصائد جديدة لتسمعنا؟
- لمَ لا؟
- حسناً، سأنتهي من ترتيب الغرفة وسأحضر إليك.
- في انتظار مجيئك، لا تتأخر.
- حاضر، يا " بابا".
خطوات الأشيب تخاطب البلاط وكأنها في حوار منسجم وهو ينزل من الدرج مقترباً نحو الصالة:
- أسعد الله مساءك يا بني.
- مساؤك أجمل يا أبي، كيف أمسيت؟
- الحمد لله، أزعجني كلب الجيران وهو ينبح.
ضحك الفتى، كأنه خاض التجربة نفسها من قبل:

- معك حق، إنه مزعج جداً وكثيراً ما يقلقني.
جلس الأشيب على الأريكة، ووقعت عيناه على الورقة التي أمامه بمحض الصدفة، حملها ليتمعن فيما كتب عليها.. والفتى مبتسم يخفي شعور الخجل بداخله، وليشتت ما به من خجل قال:
- أبي، تريد أن أخبر(سترينا) تجلب لك الشاي؟
الأشيب وهو يهمهم منسجماً في قراءة الأبيات، حيث إنه لم يرفع رأسه:
- نعم، وأخبرها تسقي زراعة الحديقة، فأنا لن أستطيع، فرجلي تؤلمني اليوم.
- حاضر أبي..
عاد الفتى وهو يقترب من الأشيب، التفت إليه الأشيب قائلاً:

لو كـــان بيفــيد التمـني
ما كـــان وقـفت الأماني

- الله الله فكم أنت بارع في صياغة الفكرة، جداً أعجبتني الكلمات وكيفية استخراج المعنى بكل إحساس مرهف صادق.
ابتسم الفتى وكأنه ينتظر هذا التشجيع، وخاصة من شخص يثق بمنطقه وفكره ونظرته الفطرية للشيء الذي أمامه.
ثم قال الأشيب وهو يمسك الورقة بيده اليسرى ويلوح بيده اليمنى:
- يا بني لم تجتمع أمة على حب زعيم مثل الشيخ زايد، طيب الله ثراه، فهو قلب الأمة النابض ومحبوب العرب وغير العرب جميعاً.
والفتى تحدق عيناه في عين الأشيب ومشاعره تلج حزناً، وهو يصغي إلى الأشيب.. بينما يسرد الأشيب..
- وهو الوالد الذي أعطى المثل الأكمل في تآلف القلوب على الخير، رحمات الله تحفه ونعيمه يكتنفه على ما قدمه لشعبه وللأمة العربية..
فجأة.. يرن صوت الجرس ليقطع حديث الأشيب والفتى ينظر إليه قائلاً:
- ها هو سلمان وصل، صديقي الذي حدثتك عن موقفه مع الأستاذ وقت الغداء.
الأشيب قائلاً: مسكين، أسرع وافتح له الباب ليتفضل.
دخل سلمان بخطواته الشرحة ويجذب معه المرح كعادته قائلاً:
- مرحباً عمي، هل حولتم حديقة المنزل إلى نادٍ للسباحة؟
ضحك سلمان، والأشيب فطن لِما حدث، فنظر إلى الفتى قائلاً:
- حمد أرجو ألا تكون (سترينا) نسيت صنبور الماء مفتوحاً ودلفت منشغلة منسجمة بشغل آخر، فهي دائماً مشتتة الفكر.
- من المؤكد أبي، سأذهب حالاً لإغلاقه و(سترينا) حسابها عندي، فهذه رابع مرة تفعلها.

رد سلمان والابتسامة ترتسم على وجهه:
- حمد استرح لا تذهب، أنا رأيت الماء في كل أرجاء المكان وكاد يغرق المارة في الطريق، فأغلقته وأدركت أن (جستينا) (جرستينا) لا أعلم ما اسمها، قد نسيته كعادتها..
انفجر حمد ضاحكاً وهو يقول:
- ما بك، اسمها(سترينا) ، وأنت كل ما تحضر لدينا خادمة يجب عليك ثلاثة أشهر ممارسة ترديد اسمها لتحفظه.
الأشيب مبتسماً ينظر إلى سلمان:
- تعالَ.. تعالَ، واجلس يا سلمان فأنت منذ فترة طويلة لم تأتِ إلينا..
نظر سلمان إلى حمد:
- عمي،أقل الأمور أنا أحضر حين أحظى بأقرب فرصة. أما بعض الناس فلم يحضروا إلينا منذ أن عرفناهم؟
قالها سلمان وهو ينظر إلى الفتى بطرفي عينيه، فتقدم الفتى مقترباً من صديقه ثم جلس بالقرب منه..
- سلمان، لن أتكلم عن نفسي، ولكن أبي يقف أمامك اسأله إن كنت كثير الخروج من المنزل.
الأشيب وهو ينظر إلى الفتى:
- صحيح يا حمد، ولكن كسب الصداقات مثلما كسب الذهب ثقيل العيار، فحين ترى قلباً كبيراً يَحمل ما لا يُحمل، احرص على كسبه وعدم الاستغناء عنه مهما حصل. فسلمان ذو خلق وأدب.. فعلاً أسعد حين أراك تصاحبه.
صاحب الفتى ينظر إلى الأشيب وكأنه يجلس مقابل أبيه، وعيناه ترتجفان إجلالاً وتقديراً لهذا الأشيب، بأسلوبه المرهف الممتزج بحنان العاطفة الجذابة التي تسحر كل من داعبها وقارعها.
وضع الفتى يده على كتف صديقه:
- أبي، هذا أخي الذي لم تلدهُ أمي، والذي استطاع كسبي بفترة وجيزة من تعرفي إليه، واجتاح قلبي بجنوده، وجميع قواته الشعورية..
ثم يضحك سلمان وبكل ثقة:
- ما كنت أدري لهذه الدرجة أن لديّ هالة قوية تجبر الآخر على محبتي.
- أبي ألا تعتقد أنك أنت الذي زرعت في نفسه بعضاً من الغرور؟
ضحك الأشيب قائلاً :
- أدام الله المحبة بينكما.
نهض الأشيب وعينا الفتى وزميله تلاحقانه وقال:
- سأترككما وأذهب لأقضي بعضاً من الوقت في حديقة المنزل، حمد أخبر (سترينا) أن تجلب لي الشاي في الخارج.
- حسناً أبي..

فالأشيب مشاعره جياشة، وسرعان ما تتفاعل مع الشيء ذاته، فيعشق صوت العصافير حين تغرد، وحين تتمايل الأغصان طرباً والرياح تداعبها يميناً وشمالاً قبل غروب الشمس بلحظات، فترسم هذه الصورة في ذهنه لوحة لا تضاهى بثمن..
على الرغم من البساطة التي يعيشها، بل إنه هادئ جداً، ودائماً يرى الأشياء من منظور آخر لا الأشجار أشجاراً، ولا الأحجار أحجاراً، فكل ما حوله كائن، ولكل كائن روح، ولكل روح لغة، ولكل لغة حديث، فلذلك يعتقد أن كل ما حوله يستطيع مخاطبته..
فيجلس الأشيب مع نفسه معاتباً تارة ومشاغباً تارة أخرى، ووقته يمضي حتى العشاء وهو على كرسيه السماوي ودلته ذات اللون الفاقع، ثم بعدها يمضي متجهاً إلى الصالة حاملاً نتائجه الفلسفية التي اختزلها ممن حوله..
دخل الأشيب الفيلا متجهاً نحو الصالة الصفراء، ولكنه قبل أن يصل إليها سمع صوتاً يحمل كماً من الشجن، واللحن الذي يتمايل له القلب وبصوت عذب يردد:

من نظمت الجيل طرزت الجمل
اسبــك الأبيــات والمعنى جزيل
مثلــما غيــثٍ من مـــزونه همل
يروي القيـــعان هطـــالٍ هميل

اقترب الأشيب إلى سلمان وجلس بجانبه، مندهشاً من هذا الصوت الشجي النقي العذب الذي حقاً أسر قلبه وقال:
- أكمل أكمل يا سلمان..

صديق الفتى صُدم من دخول الأشيب المفاجئ إلى الصالة من دون أن يصدر باب الصالة أي صوت على غير المتوقع.. فأصابه نوع من الخجل..
فتدخل الفتى قائلاً:
- أكمل يا سلمان، فمشاعرنا باتت متعطشة، فنظر سلمان إلى الأشيب فانتابه شيء من الإحساس، فكلما ينظر إليه تتوهج مشاعره حرقة وتفيض من أعماق نفسه، فأمسك بالورقة التي تحمل أبياتاً ذات قافية ووزن بحبر كاد ينتهي، فبعض الكلمات واضحة والبعض الآخر غير ذلك، وبعض الأبيات التي توجد عليها شخبطات توحي بأنها حذفت واستبدلت بأبيات أخرى.. ثم تابع القصيدة بصوته الواعد..
اكتست به الأرض من وردٍ وفل
في ديـــارٍ فوعها نرجس وهيل
العـــــلم خـــفاق بالعـــزة رفل

له قــدر في قلوبنا ما له مثيل

إلى آخر القصيدة.....

دولـةٍ تكسى مـن العـزة حلل
روحــنا تفدى رملـها والنخيل
باقية تزهو لنا بأبهى الحـلل
شامخة بالعز و الفكر الجزيل

الأشيب ينظر إليه مستمتعاً، وقلبه محلق مع أبيات القصيدة في فضاء الوطن.. وقال:
- حمد، هذه الأبيات التي كتبتها بمناسبة المسابقة التي أقامتها مدرستكم؟
- لا، هذه كتبتها قبل قليل وسلمان بجانبي. أما عن الأبيات التي تقصدها يا أبي فمطلعها:

حنا جنـود الـدار حراس
و حنا نعم سورٍ حراريس

- صحيح تذكرتها
فاعترض صديق الفتى قائلاً:
- أنا أحتج.
تبسم الأشيب والفتى.. وقال سلمان:
- أريد أن أرى كلمات يحتاجها قلبي، فقلبي تنقصه بعض الأمور العاطفية..
ضحك الفتى مدركاً ما يقصده صديقه:
- أبي، كلما كتبت قصيدة يحتج ويريدها أن تكون غزلاً، ويريدني أن أرضي قلبه وأنا لا أجيد كتابة هذا النوع من القصائد أصلاً.. ولا خضت التجربة من قبل أن أكتب غزلاً!
الأشيب ينظر إليهما قائلاً:
- الوطن هو الحب والقلب، وكل ما كتب من أجله فهو غزل، يا بني سلمان..
نظر إليه صديق الفتى مرتبكاً... معاتباً نفسه: " ما الذي قلته؟".
نطق الأشيب:
- ما به قلبك؟ هل هو متعطش للغزل كما قلت؟!
الفتى وبهجمة عكسية لصديقه:
- ربما وقع في شباك الحب يا أبي!
سلمان يضحك قائلاً:

- لا والله حشا ذلك، ولكن لديّ إحساس بأن مثل هذه القصائد الغزلية بعض الأحيان تشعرني بالحيوية.

ومقاطعة سريعة يرن هاتف المنزل والفتى يجلس بجانبه فرفع يده حاملاً السماعة:
- آلو
- مرحباً.. حمد
- أهلاً أحمد.. كيف حالك؟
- الحمد لله.. وأنت كيف حالك.. وكيف حال أبي؟
وما بين الحوارات الأخوية.. قام صديق الفتى مستأذناً من الأشيب ليعود إلى منزله، فلقد قضى وقتاً طويلاً على غير العادة..

دخل سلمان المنزل يدندن بصوته بعض الكلمات التي تعلقت في ذهنه من قصائد صديقه..
متجهاً إلى المطبخ، فوجد أمامه على طاولة الطعام صحناً يحتوي على خبز ساخن من الصمون وبداخله نوع من الجبن، وكوباً من الحليب الطازج تجمعت على زجاجته من الخارج قطراتٌ تسابقت من شدة البرودة.
فتقدم بخطوات عَجِلة وعيناه على ذاك الصحن، وبصوت مفاجئ يأتي من الخلف:
- سلمان، أين أنت من العصر؟ خذ الأكل إلى والدتي، فهي في الغرفة مريضة، وحاول إقناعها بأن تذهب بها إلى المستشفى.
سلمان ملتفتاً إلى الخلف بنظرة حادة مرتبكة لأخته:
- ما بها والدتي؟!
- فجأة أحست بدوار وهي جالسة معي في الصالة فأمسكت بها وذهبت معها إلى الغرفة قبل ساعة تقريباً، ولله الحمد الآن تحسنت حالتها.
- ولماذا لم تتصلي بي وتخبريني؟
نظرت إليه وحاجباها كطائرين يحلقان على الجبين:
- وأين هاتفك سلمان، وأنا أسمع رنينه المزعج في غرفتك..
- " أوه".. صحيح .. إذن فلنذهب إليها..
جلس بجوارها على السرير الدافئ ذي الشرشف الأزرق الذي امتزجت رائحته ببخورٍ وعطور، وبعض من الأدوية والأعشاب والـ" فكس"..
- ما بكِحبيبتي؟!
الأم تنظر إليه مبتسمة:

- لا شيء، مجرد دوار خفيف، والآن لا أشعر بأي شيء.. الحمد لله..
تنهد الولد وكأن صدره قد انشرح بعدما ضاق وضغط على قلبه:
- هيا حبيبتي، جهزت لك هذا من صنع يديّ الجميلتين.. فمد لها الصحن !..
وأخته تنظر إليه وعيناها تبحلقان في وجهه..
الأم اعتدلت في جلستها، والصحن بين يديها، والكوب في يده وأصابعه ما زالت تلامس الكوب بلمسات وهمسات، وكأن المسألة صعبة جداً ولا يستطيع أن ينزل إلى المطبخ ويجلب له كوباً آخر..
كسول كعادته ونظرات عينيه المشاغبتين لا تزال تتحرش بعيني أخته، وكأنه انتصر عليها بإقناع والدته هو من أحضر الطعام..

في أجواء غائمة، ونجوم تستتر خلف الغيوم، والقمر يداعب الغيم، يظهر تارة ويختفي تارة.. الفتى جالس على الكرسي السماوي الفاقع في فناء المنزل يترصد لهذه التحركات متربصاً وعيناه تلاحقان المشهد..
فشغلته حركة الكرسي المفاجئة بجواره، فتلفت يميناً .. الأشيب يضحك قائلاً:
- ما بك ارتعبت؟
- لا، ولكن سرحت قليلاً..
- وفيمَ سرحت؟!
- في هذه السماء الغريبة.. العجيبة، فكل ما حولنا يتحرك، ويتبع الآخر، ويحتاجه، فإذا لم تكن هناك نجوم وغيوم، فمن سيبقى لدى القمر؟
فرد الأشيب ظهره مستنداً على الكرسي، ثم رفع رأسه إلى السماء..
- لا أحد، ولن نراه جميلاً إلى هذا الحد، ولكن ما حوله جعلنا نراه بصورة مختلفة وأكثر جمالاً..
فحين كنت صغيراً مثلك تماماً كنت أحب الجلوس وحدي متأملاً متفكراً وأنظر إلى ما حولي، وأشعر بكل التحركات الجامدة بدقة، وأترجمها بما أشعر به.

وفي اللحظة نفسها التي كان يتحدث فيها الأشيب تذكر الفتى حلمه وما رآه في الفصل أثناء غفوته السريعة ... إلا أن الأشيب سأله:

- صحيح أخبرني ماذا قال لك أحمد؟ ومتى سيأتي؟!
ذاب الحلم على لسان الفتى كفص ملح في الماء، امتزج متحللاً مع سؤال الأشيب، منتقلاً للسؤال ناسياً حلمه:
- تحدث عن الدراسة وثلاثة من أصحابه المبتعثين ردوا إلى هنا، ولن يكملوا دراستهم هناك، لأنهم لم يجتازوا المعدل المطلوب، وهو سيأتي إلينا بعد شهرين على حسب كلامه..
الأشيب متصنعاً بوجهه الحال، حاملاً روحه المرحة وينظر إلى الفتى:
- إذن، سنذهب إليه بعد أسبوع، حيث تنتهي من دراستك. الفتى تتزايد دقات قلبه، ويكاد يقفز من صدره:
- أنا لا أعتقد أن أذهب، هناك دورة كمبيوتر "ICDL" سأحاول اغتنام الفرصة..
فغلبت الضحكة تصنُّع الأشيب، وضحك بصوت مرتفع، فأدرك الفتى هزيمته الساحقة، فضحك قائلاً:
- أنت تعرفني جيداً، لكنك تصر على مواجهتي وإحراجي.
- ولأنك تصر أنت أيضاً على قناعاتك الذاتية المنغلقة، فيجب عليك أن تعرف شيئاً، هذا الخوف يأتي من أسباب ودوافع قد خُزِّنت بك في الداخل وتراكمت ثم تضخمت وهذا الناتج..
- كيف؟
- الخوف بعض الأحيان يتكون من دوافع غير مباشرة قد التصقت بذهنك من دوافع مباشرة أخرى، فشكلت لك رهبة من أي شيء يشبه الدافع الأساسي، فإن تخلصت منه ستهزم كل الترسبات التي تعلقت بذهنك من خلال هذا الدافع..

بعد مرور ثلاثة أسابيع، وانتهاء الفتى من المرحلة الدراسية وحصوله على تقدير جيّد جداً .. وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً، بينما كان الأشيب يجلس متابعاً أخبار الصحف المحلية، يرن هاتف المنزل، والفتى نائم في غرفته التي كاد لونها يجتاح الألوان عتمة، فلا تجد بقعة ضوء تتغلغل خلف ستار النافذة الغليظ، والبلاط الثلجي كاد يتجمد كأجواء شتوية في مدينة غامضة، نابضة، فارضة تسهم في صياغة الفكرة وتستعرضها على ملامح الجدار الداكن، الساكن..

وفجأة.. أربع طرقاتٍ متتابعة لامست باب الغرفة من يدٍ تحمل كثيراً من الشغف، وهمسات صوتٍ كاد ينضح من حنان العاطفة:
- حمد، يا حمد، انهض عزيزي
يبدو أن الفتى لا يزل في سبات نومه، ففتح الأشيب باب الغرفة متجهاً نحو المكيف لإغلاقه، ومن بعدها فتح ستار النافذة لكي يتغلب على الظلمة الحالكة، جلس على الكرسي المتحرك مستديراً باتجاه الفتى:

- حمد، هيا انهض، لديَّ خبر لك!
فتح الفتى عينيه وأبوه يجلس أمامه، فعدل جلسته على السرير تاركاً الوسادة خلف ظهره ...
- ماذا؟ إن شاء الله خير يا أبي.
- خير بإذن الله، قبل قليل اتصلت بي إحدى الجهات الحكومية بشأن الخدمة الوطنية واسمك من ضمن الأسماء المرشحة لديهم في الدورة المقبلة.

تحرك الفتى من سريرة ممدداً رجليه على البلاط البارد وهو يحرك أطراف أصابعه، وينظر إلى الأشيب:
- وماذا قالوا؟!
ضحك الأشيب:
- ما بك ارتعبت، أخذوا بعض البيانات عنك، ويريدون منك الذهاب إليهم يوم غد في معسكر العين لاستكمال الإجراءات المطلوبة وإعلامك متى ستبدأ الدورة وباقي التفاصيل الأخرى.
- جميل، حسناً هذا يعني أنني سألتحق بعد هذه الدورة بالعسكرية ؟
- ليس شرطاً، فالخدمة الوطنية فرض واجب على كل فرد، تكون فيها الدورة العسكرية لفترة زمنية معينة، وبعد الانتهاء منها بإمكان الشخص تقديم أوراقه لأي جهة أخرى وفي أي مجال يشعر بأنه قريب إلى قلبه، فالأبواب مفتوحة للجميع ولله الحمد.
الفتى ينظر إلى الأشيب بنظرات غامضة مترامية خلف سورٍ شاهق، وبين شفتيه تتراوح بعض الأسئلة الحائرة..
- وأصدقائي، سلمان وحسن وعبيد.. سيكونون معي أم لا؟
- لا أدري، حسب اعتقادي يتم الاختيار بشكل عشوائي على ما أظن.
نهض الفتى عن سريره وملامح الرضى ترتسم على وجهه وهو ينظر إلى الأشيب:
- سأذهب إلى سلمان لأسأله هل سيأتي معي غداً أم لا؟
- حسناً عزيزي.

في منطقة " زاخر" بين الزقاق.. أشبه بسكون الموت، يُطلُّ منزل صغير كائن ما بين بيوت قد هجرت وبعضها ابتيعت وبعضها أصبح مأوى للخرفان والماعز والحيوانات السائبة الأخرى، الذي يحتوي على أربع غرف وواحدة منها مغلقة لم يتم فتحها والدخول إليها منذُ زمن وبابها الخشبي الداكن المهترئ المطل على الحوش كاد يتآكل، فصارت على واجهته انتفاخات طفيفةٌ خفيفة، تبين مدى معاصرته ..
وجسدٌ يسند ظهره إلى الباب الداكن نفسه، بصوت يشدو بأغنيات قديمة باح بها القلب، وفاح عطراً ووجداً وزهراً تناثر متطايراً في أرجاء الحوش ..
تتلاطم أمواج العاطفة، ويعلو أنين القيامة، تتزلزل أتربة الدماء السائحة، تتدفق الشرايين، تتضخم صخرة الفؤاد العتيدة التليدة، ينحني الباب الداكن المنغمس بالتراب ليقتطف ذاك الجسد الغض، تتساقط أشعة الشمس متسللة تمرق ما بين وريقات اللوز الخضراء المستوية، والصفراء الملتوية المنطوية ..

وصل الفتى إلى الزقاق المطل من زاوية المنزل، ووقف أمام الباب الحديدي التي تساقطت ألوانه قشوراً متناثرة، كأنه الشاهد على الزمن، كرجلٍ صوفي عانق الكون بنظرة غامضة، نابضة، بشفافية الروح المحرضة على الاعتزال، والانفصال ..
طرق الباب بيدٍ جامدة مترددة تحمل الشك بأن هذا المنزل قد لا يكون منزل صديقه سلمان، بضع دقائق، صوت قفل الباب يُفتح بحيوية كأن

الرجل الشاهد على الزمن انتعشت روحه وارتوت بعد ما كان يقف بوجهه الشاحب ..
تخرجُ بنصف وجهها، وهي تستتر خلف ظهر ذاك الرجل، ترمق عيناها عيني الفتى، وجهها مشبع بالحياء، والصفاء، والنقاء، مفرزاً جبينها إشعاعات مستهدفة، تستهدف القلوب المغلفة المضادة لإنفلونزا الحب الذي ينتشر بثوانٍ معدودة في الأوعية الدموية، وما بين الشرايين متدفقاً مع الدم إلى القلب مؤثراً في نبضه، أشبه بصوت الكواكب والمجرات الكونية وهي تسير في مداراتها التليدة، في مساراتها العتيدة، بذاك الفضاء الخالي من الشوائب، الذي تتلألأ فيه النجوم كلؤلؤٍ على جيد امرأة باتت تصفف خصلات شعرها على دكةٍ اعشوشبت بأزهار " الكليمانس" و" النيلوفر" ..
الفتى يقف في لحظات التبلد الفكري، غائصاً في أعماق صدره وسط حروفٍ متناثرة، وكلماتٍ مبعثرة، باحثاً عن دررٍ تجلهُ، وتحله في قلوبٍ ودروب ..

في لحظه مباغتة لم يتحيّن لها الفتى:
- عفواً، ماذا تُريد؟!
- سلمان هُنا؟
الشك يتلاعب في ذهن الفتى، ولا يدري هل هذا المنزل هو نفسه منزل صديقه أم لا، لكن قلبه بات يتمنى أن يكون هذا هو المنزل نفسه.
- سلمان في الخارج مع والدتي، خرجا قبل قليل لإحضار بعض الأعشاب، هل لديك ما أقول له حين يأتي؟
همهم الفتى قائلاً:
نعم، أنا صديقه حمد الجهاري، أتمنى أن يتواصل معي حين يصل إلى المنزل.

يذوب القلب، يتوارى الزمن مختفياً بتفاصيل دقيقة، أدق من نظرات الفتى، وأرق من دقات قلبه ..
المشاعر بها خفة، تتراقص شوقاً لإطالة الحديث، عيناه يُبين بهما الإعجاب

اللاشعوري المتخفي داخل حدقة العين الضيقة، الشعور متبادل في الوقت الراهن، وهي ترمقه بنظراتٍ غنجة متدللة، محركة شفتين مبتلتين " بروجٍ" أنثوي ماكر..

في هذا الصباح يتوغل الحب إلى قلب الفتى، كأسراب طيورٍ في سماء تفتقت عن وميض أشبه بالبهاء الساحر الذي يشرح الصدر ..
عاد إلى المنزل حاملاً معه أفكاراً قد كبرت، بحجم الحياة، لم يدرك أن الحب قد يصبح مشتركاً، والتضحيات كبيرة، وعسيرة، وكثيرة في الوقت نفسه..
جلس متكئاً على الأريكة في الصالة، الصحف متناثرة من حوله، عيناه منصوبتان باتجاه السقف، أفكاره أسيرة بذاك المنظر الهائل، والصدمة العظمى لما رأته عيناه، المشاعر تشبق بحراً من الحنان المتراكم خلف هذا الصدر الذي كاد يشبه قماشاً شفافاً يخترق جوانب الروح ..
نزل الأشيب من غرفته متجهاً إلى الصالة، مقاطعاً أفكار الفتى الجامحة بخطواتٍ متئدة:
- هل رأيت سلمان؟
مهمهماً الفتى وهو يهز رأسه مردفاً:
- لا، لم يكن موجوداً في المنزل، ولكن رأيت أخته وقالت لي ستخبره أن يتصل بي حين يعود.
الأشيب يتقصى وجه الفتى، يقرأ الملامح، يرى وجهه يشير إلى شيء ما، كأنه يرنو إلى الحب نفسه ..

على حافة القلب عند مفترق الفكرة، تماهت سلمى، متقمصه شخصية الفتى الجذابة، متمتمه بشفتيها المبتلتين، ,وعلى وجهها علامات البهجة والسرور، حين أدبر الفتى بظهره أحست باستقرار أمنية كبيرة في جوفها، شعرت بأنها قريبة التحقق ..

هذا هو الصباح يمضي، ويأتي المساء أشبه بيوم يغسل براثنه، ويبث حنينه لقلوبٍ ولدت، وأرواحٍ امتزجت، كأشجارٍ تلجُ لوعتها في التعانق .. في خارج المنزل.. تحت تلك السدرة الغارفة، الضاربة جذورها في الأرض، المعانقة للسماء، السامقة، البازغة، المطلة على هضبة من الرمل، يجلس الفتى مردداً بعض الأبيات:

خذنـي هــوى بـو عنقٍ وطوق
تحـت الغشــايه بيّـن و شاع
كــل ما ذكــرته يـذرف الموق
من طــرف عينٍ سالت ادماع
واقـــول له شوقتـــني شـوق
ما لي عــزا عــنك ولا قـــناع

مسنداً رأسه بجذع السدرة، وينظر إلى تلك الهضبة، متذكراً حوارات الأشيب حينما كان برفقته، وبعض الأسئلة التي طرحها عليه، ثم يرفع رأسه باتجاه السماء ناظراً إلى النجوم محدثاً نفسه قائلاً:
- ما بال النجوم لا تبتسم ما دامت تعشق! وما بال هذه الأرض العملاقة هكذا، تدور حول نفسها كأنها تسكن عند حافة الألم، والصراع، هي هكذا تدور وتدور، لكنها لا تتجاوز أحلامها قارعة الأمنيات، وناصية الآمال .. تنهد مسترجعاً صوابه، ماذا عن يوم غد؟ وماذا سأفعل؟ ومن معي؟ وما هذه الصدف المباغتة؟ يجتمع الحب فيها بزاوية القلب ثم ينقسم.

الأشيب لا يتغاضى قط عن الفتى، ولن تشغله شاغلة، ولم يدع شاردة ولا واردة إلا واستخدمها في سبيل إرضائه، دائماً يتبعهُ برجلهِ وقلبه ..
اقترب الأشيب من السدرة فلاحظ الفتى يصدر آهاته الحارقة، تنامت ألقاً عند اللحظة المتشظية خلف ذاك الجذع ..
قطب الأشيب حاجبيه وانقبض صدره لهذا المنظر، مقترباً نحو الفتى، قائلاً:
- حمد !!
بصوتٍ يرتجف، وينزف بأحاسيسٍ فائضة، التفت الفتى في قنوط، وعيناه على الأرض بعدما سمع الزمجرةَ المهيبة التي قطعت حبل أفكاره الشاردة:
- نعم أبي.
الأشيب من خلف الفتى يضع يده اليمنى على كتفه قائلاً:
- ما بك عزيزي، تجلسُ وحدك في هذا العراء، مستنداً خلف هذا الجذع الشاحب.
يقولها الأب وصدره أشبه بتنور أوقد حطبه، وارتفعت ألسنة نيرانه لأنه لا يُريد أن يرى ابنه بهذا المنظر، ينصهر ألماً، ويعتصر ندماً حين يشعر بأحد أبنائه قد أصاب خاطره شيء ما.

جلس الأشيب بجوار الفتى، مقابل تلك الهضبة التي انغمست في الظلام الدامس حتى إنها التحمت مع العتمة، فزهت بلونها الرمادي على ضوء القمر الخافت وقال:
- أتذكر حين كنا على تلك الهضبة وكنت... تحدث الفتى مقاطعاً الأشيب:
- وكنت تسمعني بعض القصائد، كيف لا أذكر يا أبي وصوتك يرن في أذني، ويدب في ذهني كل ما أصبحت وأمسيت، فأنت من يهيج قريحتي ويجعلها تزداد شغفاً ولهفاً كلما مستها لمساتك، وهمساتك.
- جميل، لكن في الماضي أنا من كان يصطحبك إلى هناك، واليوم عكس ذلك أنت من أتى بي إلى هنا، فلتسمعني ما بهذا الصدر الدفين المنتفض.
أخفى الفتى لوعاته التي ترسبت على حجيرات الصدر، بتنهيدة خفيفة غير واضحة، وليست مباشرة مشتتاً انتباه الأشيب، ثم التفت إليه بعينين ذابلتين، وجفنين مسبلين وقال:

خذنـي هوى بـو عنـقٍ وطوق
تحـت الغشــايه بــيّن وشاع
كل ما ذكـــرته يــذرف الموق
من طرف عينه سالت ادماع

مرتجلاً الأبيات المتسللة من أعماق صدره المشحون بكل ما يثير الأحاسيس، ويدير تلك الهواجس الفائضة في داخله:

وأقـول لـه شوقـتنـي شـوق
ما لــي عــزا عنك ولا قناع
يا ليتــني مثل المطر سوق
ما يـرد مايه بــاس ومناع
بهطـل وبســـــقي .....
.. إلخ

في اللحظة نفسها يستمع الأشيب إلى الفتى، ساورته لحظة جامحة في التصفيق والغناء، لأنه من الرائع أن ينتصر الإنسان على نفسه، وأن يرسم شعوره الداخلي بلوحة طرزت أطرافها بالحنان، والعاطفة الساكنة داخل الروح ..
انصدمت عينا الفتى وهو يعد أحاسيسه على كتلة جسم بشرية قادمة نحوهم من بعيد أشبه بجسم صديقه

- أبي انظر، أعتقد أن سلمان قادم إلينا.
الأشيب مبتسماً:
- وماذا يعني؟ مجرد سلمان.
وهو ينظر إليه بطرفي عينيه الشقيتين، كأنه يعلم أن حضور صديق الفتى رسائل تزف التهاني والبشرى المقلقلة إلى قلبه.

حين اقترب، في الحقيقة آسيوي عابر يظهر ساقيه، الباليتين، الناحلتين من تحت وزارٍ بانت أهداب أطرافه، حتى إنه تغير لونه من تكرار الغسيل .. رفع يده مؤدياً التحية، فانعكست ملامحه البائسة، المألوفة على عيني الأشيب، نهض بسرعة مشيراً بيده، منادياً:
- " كركاس" ، " كركاس".
التفت الآسيوي مقترباً إليه، صوته يجر الآهات، ويدر الونات المكتومة داخل النفس.. وبدهشة على غير المتوقع:
- أرباب العمل موسى !!
- " كركاس"
يقولها الأشيب لافظاً اسم العامل، حيث إنه منذ فتره طويلة لم يلتقهِ، منذ أن توفي أخوه..
دارت الأحاديث بينهما إلى أن وقعت عينا الآسيوي على الفتى، استوقف فكره متذكراً، وهو يقول:

- ما شاء الله، كبر حمد، بعد ما كنتُ أحمله على كتفي ماشياً به على طرف لسان البحر .. مردفاً قوله: وحتى أخوه أحمد كان صغيراًفي حينها.
قال الأشيب:
- أحمد الآن يدرس في الخارج، وحمد هذا الذي تنظرُ إليه أنهى دراسته أيضاً.
" كركاس" هازاً رأسه مبتسماً وعيناه ترمقان الفتى:
- إذن الآن فلا بد من أن يتزوج.
يتأفف الأشيب رافعاً رأسه، مغمغماً:
- " لَوْ تُرِك القَطَا ليلاً لنام" ، ثم أخفض رأسه ملتفتاً إلى الفتى، هل تعرف من هذا؟
- هو نفسه من كان يعمل لدى عمي يوسف!
" كركاس" غُمر بالسعادة، مبتسماً مبرزاً أسنانه التي اصفرَّ لونها، كسقفٍ من جريد ..
- ابنك حمد يعرفني، ويعلم كذلك أني كنت أعمل عند عمه!.
الأشيب مضيفاً لقول الآسيوي:
- نعم، يعرفك جيداً.
ومن ثم تحرك الفتى، ممسكاً بيد الأشيب بعد أن ذهب عنهما خفيف الظل، متجهين إلى الهضبة نفسها، تحدث الأشيب منادياً بصوتٍ خفيف:
- حمد!
- نعم أبي.
- ما بك؟
- لا أدري ..
خفض الفتى رأسه، وعيناه تغوصان ما بين الغبار الخفيف المتطاير من الأتربة التي تركلها أقدامهما وهما يصعدان التل، وقال الأشيب:
- بماذا تشعر؟

دائماً يسعى إلى تحرير الفتى من نفسه، كي يعيش من دون قيود، محاولاً أن يدخل في لب أعماقه، في جوفه، ينبش في داخله ساعياً إلى ترتيب أفكاره ومشاعره، ماضغاً عشب الفلسفة، متصنعاً أمنياته الحالمه، موقناً بأن " هذا الجسد مقبرة للروح" فإن لم تُجِد امتلاك ما في داخله، فلن تستطيع السيطرة على خارجه ..
جلل الفتى صوته بهالة يغمرها الارتباك اللاشعوري.
- أشعر في داخلي بتناقض يسكنني وصراع يغزو فكري منذ أن...
الأشيب وهو يصعد الهضبة ممسكاً الفتى بيده اليسرى، ويركز بعصاه الأرض بيده اليمنى قائلاً:
- منذُ ماذا؟!

- لا شيء، لا أريد الذهاب إلى العسكرية فقط.
تجلد الأشيب مرتدياً ثوب الصبر، متغطياً بالأمل، ينظر إلى الفتى:
- ولماذا؟ ما الأمر؟ حين أخبرتك في الصباح كانت علامات البهجه ترتسم على وجهك !!
انكب الأشيب أعلى الهضبة جالساً متماهياً يمرغُ بعصاه الرمل البارد، احتدم الفتى متوجساً وهو يجلس بقربه، على الرغم من رغبته الملحة في إخفاء ما في داخله وإصراره، إلا أنه لم يستطع إخفاء جزء المقاومة الذي انتابه منذ اللحظة الفارقة، السارقة، الشارقة، منذ أن رأى المشهد الخرافي الأسطوري العظيم، يشعر وكأنه بين السماوات الصافية، والملائكة تدور حوله، ولا عودة ميمونة حميدة إلى هذه الأرض، كل ما حوله هناك يتشغفون لهفاً آبين إلا أن ينزل إلى هنا، إلى الأرض فإنها ضيقة، ولعنتها آتية لا محالة، كبعيرٍ أجرب يلهثُ بخطامٍ أعجف، يسيرُ في عراءٍ واسع، في لحظه يرتل فيها الفتى مشاعره، رفع رأسه ينظر إلى الأشيب، بانت عيناه الضيقتان، ثم قال في صوت متحشرج:
- على الرغم من تفاهة ثيابها، لكنها تحتضن فكري، أشعر وكأنها تسير في داخلي، تسري في عروقي، باتت كلماتها تتردد مراراً وتكراراً في ذهني.
قد نمت الفكرة في رأس الأشيب، قبل أن يبوح الفتى بأساريره، ولكنه كان ينتظر هذه اللحظة كي يفرغ الفتى ما في مكنونه، وينظر إليه بعينين تحملان كماً من الفلسفات المتوارية، ملتزماً بالصمت، ينصتُ مستمعاً إلى الفتى ..

حتى انتهى الفتى مفرغاً ما في داخله، رفع الأشيب بصره إلى السماء، وقال: - أيها الصب الشقي، أحلامك، همومك التي خبأتها في معطف الذاكرة، وبعض أيامك في ذاك الزقاق الأليف، اليوم تسأل عن هذا وذاك، وعن هذه وتلك، جلهم ذهبوا في عتمة الزمن التليد، في الضياع المدلهم، لا شيء سوى بعض الصور العالقة، والمشهد حزين.. حزين..
أيها الصب الشقي، وحدك عند حافة التذكر، تقرأ الملامح، وتتلو آيات الحلم القديم، وأشياؤك المعتقة بدهن الآمال، والأمنيات والمعاني، حيث لا معنى إلا لقديم أسس وعيه في الرأس ثم استلقى تحت غصن الألم، مقتفياً أثر الغائبين، والحاضرين بلا أثر والمتأثرين بالحجر، والمجتهدين عند طوق اللهفة اللذيذة.

يـا... الله، هذا هو أنت، تغسل ملابس أفكارك، برذاذ اللوعة، وتجزم أنك حي رغم الفراغ الوسيع في دائرة السؤال.
لا حيرة أبداً فعندما تهبط الطيور من علٍ، فاعلم أن في عمق الماء سمكة تغري النفوس، الدائخة نبشاً عن رائحة.

لا حيرة أبداً، وأنت تطور وعيك، بازدهار الأمكنة، وما تساقط من رطب جني.
أيها الصب الشقي، أحلامك.. أيامك، والزمن الأسطوري مع المشهد ذاته، ينفض يده مما فعل " باسكال" الأزلي، و"أغسطينوس" المخملي، وبعد فلاسفة ما قبل الأنوار، ومن جاشوا هياماً، بعودة القوة الخارقة.
أيها الصب، وحدك في هذا الزقاق، ترسم صورتك على الرمل المبلل بالعرق، وتنقشها ثم تعيد الكرة.. وحدك، هكذا وحدك تخربش على التراب، كأن يبابك عشب من تحته يختزن الماء.

أيها الصب، لا تجزع البتة، فالوطن الذي تحلم به صار شراعاَ ويراعاَ، وإباءً وفخراً.. صرت أنت الفراشة في حقله الزاهي، صرت أنت اللون المنقوش على قماش الوطن.
أيها الصب، لا تجزع.. الوطن الذي تحلم به صار منبراً للحدث العظيم، صار الوعد المجلل بأسورة وأيقونة الحياة.
أيها الصب، هذا هو الوطن، هذا أنت، هذه النجمة العالية، تسطع في عينيك، لتكشف عن سر النهوض، وأسطورة التطور.. أيها الصب، خذ إذن بناصية البداية، خذ بالوقاية، وضع على رأسك التاج وخض الأمواج، بجرأة الأولين، وسمة المخلصين، وصفة الصادقين، كالوطن ينمو بالحب أشجاراً وارفة، وأغصانه هذه السواعد.
أيها الصب، هذا أنت، وهذا هو الوطن، وهذه الأمنيات كأنها فراشاتٍ ملونة بريشة الأفئدة الواعدة.. أيها الصب، هذا هو أنت، وهذه سفينة الوطن تخوض عباب البحر، بحماسة الحالمين، المثابرين، بوطن لا تشوبه شائبة، ولا تقضه شرارة حسد..
وطنك هذا، أجمل الوعود والعهود، وأكبر من حدقات الذين لا يرون إلا أخمص القدم، فلبَّ نداءه بروحٍ موردة، تزهو بالعطاء، والسخاء، فهو الحياة، وهو الحب الحقيقي، طَالما بقي القلب ينبض مخلصاً، من هنا تبدأ المشاعر تتشعب متفرعة.

في اليوم التالي، في الصباح يجلس الأشيب على الأريكة، وبيده كوب الشاي الأخضر الساخن الذي أحضرته " سترينا" أشبه بالانتعاش حين يتغلغل في الصدر خائضاً ما بين الأنسجة، متوغلاً ما بين العروق والشرايين، يتصفح الجرائد منتظراً عودة الفتى من المعسكر وما يحمل من أخبار بهذا الشأن ..

يرن هاتف المنزل، يقف الأشيب حاملاً بيده الكوب متجهاً نحو الهاتف، يحمل السماعة بيده اليسرى متحدثاً:
- آلو
- السلام عليكم، عمي.
- وعليكم السلام، مرحباً سلمان، كيف حالك بني؟
- الحمد لله عمي، أين حمد؟ أمس اتصلت بكم عدة مرات فلم يجبني أحد.
- صحيح، كنا خارج المنزل، ولكن حمد حالياً ذهب إلى المعسكر ليستكمل إجراءات التجنيد.
- التجنيد؟
- ألم يتصل بك أحد بهذا الشأن؟
- لا
سلمان ممسكاً سماعة الهاتف، ويتحدث مع الأشيب، وسلمى تتلظى بجواره، تلتهب كتلة المشاعر الجياشة داخل الروح المنقبضة، تحاول لجم هذه الأحاسيس المتناثرة خشيه أن تبين، مستدعية ابتسامتها الزائفة بوجه أخيها، وكأن صفعة كف حارقة لامست خدها حين علمت أن حمد التحق بالدورة العسكرية، وهذا ما يعني سيغيب فترة من الزمن ..

تدور رحى الشوق، تتهافت المشاعر، تتلافت الأحاسيس باحثة عن جسد يحضنها، بحرارة شوقٌ ساخن، من "نصخ" يجتر أنينه المحتضر، في ليلةٍ تقشعر لها الأفئدة، فتذوب الأجساد في نسيج واحد، شارد بعيداً عن هذه الأرواح الزائفة.
تبدو سلمى في عيني الفتى ليست من العاصيات الراعفات بالفضول، إنما هي امرأة شانت الدنيا في وجهها فهانت عليها، فالتطمت بجدران الصمت، تعيش ما بين كتاباتها والأدراج. تبدو سلمى في عيني الفتى لا تحب التحدث إلى صديقاتها حديث قوارع الطريق أو نواصيه، بل هي مخلوقة هكذا، مختلفة.. تعيشُ منهمكة في قراءاتها، وأوراقها المبعثرة، التي ساحت على بعضها قطراتٌ من الحبر الأزرق الغامق.

دخل الفتى المنزل، حاملاً بيده ورقة التحاقه بالدورة العسكرية، وقف الأب ملتفتاً إليه متسائلاً:
- بشر يا بني، ماذا حصل؟!
- لا شي، فقط قاموا بإجراءاتهم، مع بعض الفحوصات، ثم قالوا سنتواصل معك فيما بعد.
- الحمد لله، الآن أحسست بالراحة، فكم حملتُ ثقلاً وأنا جالس أنتظر

مجيئك وما تحمل من أخبار تعصف بالذهن. هيا يا بني اذهب وغير ملابسك كي نتغدى، فاليوم أنا من أعد لك الطعام ..
قال الفتى:
- و" سترينا" ؟!
- " سترينا" ذهبت إلى المطار في الصباح لتغادر، وافتها أنباء مؤلمة وفاة أبيها وابن أخيها بسبب زلزال ضرب منطقتهم.
- يا للمسكينة، قلبها لا يستحق كل ذلك، فمن فترة وجيزة توفيت ابنتها بذاك المرض اللعين.
الأشيب قائلاً:
- لهذا لم أمانع سفرها، ونحنُ في أمس الحاجة إليها.

الفتى على الرغم من ثقل رأسه، الذي يحمل أفكاراً قد كبرت، وجسمه المنهك، إلا انه يسعى دائماً ألا يبين ما بداخله، فالوجه مرآة للروح، فكلما زان الوجه وابتسم، انشرحت الروح وارتقت، وسمت إلى آفاقٍ وأحداقٍ وأشواق الذين تفانوا من أجل الآخر، كي لا يعكس للآخرين ما به، ويبقى ذاك الوجه يحملُ كماً من الشوق المتناثر الذي يستتر خلف سحنته الذابلة.

وفي منتصف الليل، يجلسُ الفتى على طاولته، مرتلاً مشاعره تحت نورٍ خافت، والصور تترنح أمام عينيه، مختلساً بذهنه تلك الملامح، مسترسلاً بأشواقه مداعباً أوراق قلبه ..
لم أرحل سيدتي لم أرحل، فأنا في الأرض كما المنجل، جسد هنا يطوقني، والروح هناك هي المفصل، لا أحلم إلا بامرأة وطن لي لا يبخل، يزرعني لوزاً، يسقيني من ماء القلب فلا يأفل، لا أحلم إلا برائحة من طيب زقاقي هي الأول، والآخر أني لا أقبل، فصلاً في الغدر ولا أرضى ببديلٍ يمنحني زعانفهُ، فأنا من صغر والقلب حليباً من وجع يحتلب ، لا أحلم إلا برضاب من شفة القلب أرشفها، أمضي والدنيا مسافات، لا تدنو إلا بالعشق، قالوا مجنوناً ذا يصبو لعشيقٍ قد أفل النجم، قلت وما العشقُ سوى عبقٍ، يغرسُ في الجلد نوائبه، وجنوني عشق لا يفني العقل، ولكن العقل به يحيا، قالوا مجنوناً ضيعهُ العشق، قلت الفسق بأن ننسى، وتغادر أرواحاً في نزق ..
سيدتي، لم أرحل لكني أعلنت العصيان على المنكر، وتركتُ زقاقاً أحملها، في قلبي تشرب من ولهي، وتركتُ وجوهاً أعشقها، كي ترشف

من فيضٍ في قلبي، وتركت مزاراَ كي ينمو، بفؤادي زرعاَ لا يخبو، وتركت ديارا في قلبي، ومضيت أخضب خاصرتي، بجروحٍ تنمو على الورق ..
سيدتي، الرأس يعج بأهوال، والقلب مليء بالملح، ماذا لو أني قد سجت بأشواقي، أغرقت البحر، واغتلت الأرض بلا سكين، وسلخت وجوهاَ بالبوح ..
سيدتي ماذا لو أني قابلت قيساً في دربي، لرمى لوعته سخرية وتساءل عني، وعن وجعي، لا أملك قولاً في لهفي، بل إن القول هنا سخف، إذ يكبرُ جرح عن قولٍ سيدتي، أشعر أنكِ قد أججت الجرح، ملأتِ الوقت رياحاً نازفة بالبوح، وملكتِ القول فأعجزني قولي، سيدتي ما الحلم سوى، قبسٍ يسمو بالقولِ وبالفعل، سيدتي قولي، فإني، حين يكون القول بحجم الجرح، لا تتثاءب أيامي، بل يصحو جرحي، يزرعني ألقاً في الدربِ، يزرعني لوزاً بصدرٍ أشبه بالكونِ.

ليلة باتت فيها الأحاسيس متشبعة في ذاك القلب النابض، خلف الجدار المعتم، الذي يعكس بعض جزيئات الضوء الواردة، الشاردة من تلك الأباجورة ذات الإنارة الضئيلة الساقطة على المكتب، لا شيء يبين في الغرفة سوى بعض الكتب المتناثرة والأوراق التي احتضنتها أنامل الفتى.

وفي اليوم التالي، منذ الصباح الباكر، حيث الشمس تبث إشراقاتها الباسمة، وتنث أشواقها الراسمة على خيطٍمن حرير، تتسابق خطوات الفتى نحو ذاك المنزل في " زاخر" ، نحو ذاك المشهد، الراسخ بجذوره في مخيلة الذهن، وتتناسق الأشواق في مدارات القلب متسللة ما بين الأفئدة والشرايين.

وقف أمام الباب بعد ما فتحت له سلمى قلبها قبل ذاك الشاهد على الزمن، العتيد، التليد، تنظر إليه بأشواقها الحارقة، تنزلق النظرات من بؤرة الحنين، وتبدو المشاعر مجلجلة، متوغلة، متكللة بتيجان الحب الزاهي، والقلب الذي ينبض بألوان الحياة، والمحور فكرة كبرت حتى أصبحت تسابق، وتلاحق ظباء الشوق الشاردة، الواردة على نهر الأمنيات.
- قالت: عيناك الضيقتان أوسع من هذا الكون، تعكسُ لي ما يدور في فضاء عقلك، حتى باتت مجراتك تسير عكس مساراتها.
تبسم الفتى قائلاً:
- عيناكِ الواسعتان أضيق من مساحة هذا القلب، الذي كاد ينفطرُ شوقاً، وينعصرُ اشتياقاً كلما التفت متأملاً إلى تلك الملامح التي تراوده ما بين اللحظة وتلاها.
تتناسق المعاني، تتسابق الأماني تاركة فجوة غرستها سهامٌ قاصفة حلت على غصن الفؤاد النازف، العاصف برياحٍ راجفةٌ ناسفة.

بعد ذاك اللقاء، بعدة أسابيع، تبتعد الأيام مهرولة، وتمضي الساعات كأن شيئاًما يلاحق الدهر، أصبح الأمس ماضياً بعيداً تحيك خيوطه الذاكرة، والزمن كحبةٍ رمل سحقتها أقدام ناقةٍ عرجاء هد خطامها رجلٌ أحمق.
لا عقول تدركُ الزمن، ولا زمن يدرك اللحظة، وما اللحظة سوى ومضة أوهام، وعضة إبهامٍ بها آلامٌ وأسقام.

في ذاك المبنى الضخم، معسكر " سيح اللحمة" في مدينة العين، داخل الغرفة المعتمة، المظلمة لا ضوء سوى من الخارج تأتي ملامح ساقطة من ضوء شارد إلى الداخل، متسربة وسط أحشاء نافذة صغيرة في أعلى الغرفة تهالك خشبها فأصبحت مصدراً للضوء الخافت .
الفتى على سريره الأبيض مُغطياً وجهه بـ " الشرشف" البني الفاتح، وأصابع يده تتلمس أطرافه، كأنهُ يعزف آلة موسيقية في حفلٍ صاخب، من حوله تلتف الأسرَّة، كأنها مراكب صيد خشبية صغيرة وادعة تحلم بيوم جديد يلي الأيام الفائتة، تحت ذلك اللحاف يتردد صدره بالشهيق والزفير، يعتصر من مرارة الفقدان، وحرارة الأشجان الوارية في لب أعماقه التي كادت تشبه الغرفة التي يقطنها.
تمضي الدقائق مرتجفة كعيونٍ زائغة تنظر لعالمٍ تخلل، وتململ، وتحلحل عن عادته، يتمرمر الزمن بين أصابع الوقت منفلتاً، متزمتاً بقناعاته

المتشرذمة.
فجأة.. صوت جرس أشبه بجرس طابور الصباح المدرسي، حيث يصطف التلامذة لتلبية رغبة الأساتذة المتعجرفين في الصباح الباكر، البرد ينخر العظام، كأسهم سامة من عدوٍ غائر.. يتململ الفتى على سريره والصوت يغزو عقلة، ويخيم على حقله الفكري مما يجعله يتشتت كلياً ويتزلزل من مكانه.
القائد يدحر الباب داخلاً بصوته الزاجر، وتعلو صوته صفقات متتالية بأَيَادٍ خشنةٍ:
- هيا.. " الجميع أنهض " طابور، صلاة الفجر!! فلينهض الجميع ليصلوا، ثم يستعدوا لبدء التدريبات العسكرية، 10 دقائق لديكم فقط، 4 دقائق للصلاة، و6 منها لاستعدادكم وتواجدكم وسط الميدان.
مترجماً أحاسيسه بصوته الضخم، كضخامة جسده الفارع، وعضلات صدره البارزة، سحنة وجهه الأسمر ترسم على جبينه شقاء المهنة، مديراً ظهره خارجاً من تلك الغرفة، مراوغاً باقي الغرف مستدركاً الوقت الراهن..
تتناثر الأجساد من الأسرَّة متعثرة، متبعثرة كجرادٍ مبثوث، منتشرين، مهرولين نحو غاياتهم الكامنة في النفس.

وفي المساء.. تجلسُ سلمى مجترة آهاتها المتلهبة بلظى النيران المتوارية في داخلها، تعدو بفكرها بعيداً عن الموقف نفسه، متنهدة فيما بينها، ولسان حالها ينطق:
- آآه، ما لهذهِ اللحظات هكذا تمضي، كماء انسكب على وجه التراب، ثم تغلغل في أحشاء هذه الذرات الصغيرة وتوغل ما بينها .. واختفى
تخفضُ رأسها بعد ما كانت عيناها محدقتين في زرقة السماء الصافية، تنظر إلى أخمص قدميها وهي تحرك أطراف أصابعها ملامسة حفنة من التراب الناعم اللطيف، متمتمة؛ أين الحقيقة ما دامت هناك توجد حقيقة، فالحقيقة تبدو في ذهني شامخة، وراسخة وإن لم تكن كذلك فما الحقيقة بها !!
تتراقص نسمات الرياح العليلة على جسدها، ينغمسُ ثوبها ذائباً بحرارة، ومرارة، وجسارة، مترنحاً عارضاً ملامح جسد طوّق بهالة تشع كلما تغذت من حلاوة المظهر، وأناقة المنظر الزاهي، تتلاعب بالفصول، والأصول، والتأصيل، تزهر الورود وتتفتح بوجنتيها، مثل قطرة ماء على جناح فراشة تحركها رفرفة الشوق، والألق، فتلمع كلما جاشت الحقول بأحلام الكائنات النبيلة، الجميلة، تفوح الأزاهير وتبوح بأعذب الأناشيد، متمايلة مع عودها الغض، كقاب قوسين من أسطورة خُلدت، ما بين شفة وشفة، رضاب، يغسل القلب، تحرك في المكامن نعمة الجلجلة، كالجموح في أصل الكلمة، الطموح في القلوب المدعمة، مثل الصروح في داخل الروح

الإنسانية المتناغمة، كشيء لا يشبهه شيء، لا يشبه إلا نفسه، كنقطة ضوء واعية، تنتشي الأتربة من تحت قدميها متسربة بين الأصابع كي تحتضن جزءاً منها .. كل ما حولها يتلمسها، منتظراً تلك اللحظة المباغتة، لالتباس الروح، والخلوة الفاصلة كأن الدهر متعرًّ فاتح أزاره في ليلةٍ صاخبة على سريرٍ أرجواني فاخر.
كل ما حولها يتهمسها بهمسات العاطفة الجياشة، التي ترتجف منها الأنامل مرتعشة غائصة في أتون الروح، حتى الهواء الغائر على خصلات شعرها المتطاير بدا وكأنه مراهق في العشرين من عمره، يحاول أن يبيّن فحولته الفطرية فانحبس، وانطمس، وانغمس كلياً حتى كاد لا يقوى على الانسلاخ من ذاك الجسد.
يدخلُ سلمانٍ المنزل فيجد أخته تقف أمامه في فناء المنزل مستندة على الجدار، تفركُ قدميها على الرمل، تمرغُ أطرافها فيه، راسمة ما يدور في مخيلتها وما يخطر لها في تلك اللحظة .. فقال:
- سلمى.. كيف حالك ؟!
ترفع رأسها مفزوعة من الصوت المفاجئ، تكشط بقدميها ما كتبته، ثم تتقدم بخطوة إلى أخيها، قائلة:
- الحمد لله، أخفتني.
يتحرك مبتسماً وهو يقترب منها:
- أين والدتي؟
قالها سلمان بصوتٍ خفيض، لا يتعدى مكان أخته.
- ذهبت لتستلقي قليلاً بعد ما جلسنا ساعات ونحنُ ننتظر مجيئك إلينا، ولكنها أوصتني بإيقاظها قبل أذان المغرب.
وهي تتحدث لأخيها لاحظت بقعة دم صغيرة على ثيابه عند ساقة اليمنى، فاقتربت أكثر، دَنَّت جسمها نحو الجرح، قائلة:
- ما هذا؟!
تقهقر إلى الخلف قليلاًوقال:
- لا شيء، جرحٌ طفيف.
- بل إنهُ ينزف، وبشدة.. ولهذا كنت تتساءل عن والدتي، خوفاً من أن تراك؟
يضحك سلمان قائلاً:
- الدم ينزف وأنا سأموت، وأنت ما زلتِ تتحرين عن المسألة.
- اصمت قليلاً.
قالتها بصوتٍ يحمل كل معاني الرقة، ترفع يدها اليمنى ساحبة وشاحها الوردي الذي كانت تضعهُ على كتفيها، ممسكة باليسرى الساق نفسها، يجلسُ أمامها كأنهُ طفل في الروضة يمد رجليه منتظراً والدته تلبسه حذاءه، وهي تلف الجرح بالوشاح بعد ما طهرته بالماء المالح، ينظرُ إليها

بعين الإعجاب، كونه أخاها الأكبر، تتهافت أوردته كلما لامست الجرح، لمساتها تؤجج قلبه ليخفق، ويطرق، ويصفق بجناحيه محلقاً، منتشياً بما جادت به السماء، وما أناطت له من مسؤوليات تجاه هذه الإنسانة ..
بعد ما اطمأنت عليه، جلسا في حوش المنزل عند زاوية، بالقرب من قفص خشبي، بداخله ثلاث دجاجات وديكٌ واحد، التفتت نحوه متمعنة نقاب وجهه لتشاهد محض المصادفة كدمة خفيفة عند الأذن، وهو حانٍ رأسه يمرزُ شيئاً ما بيده، فقالت:
- سلمان، هل تشاجرت مع أحدٍ ما؟
التفت إليها منصدماً:
- ولماذا؟!
- أجب، فقط.
- أممم نعم، مع أبناء معتوق..
- هم أنفسهم الذين تشاجرت معهم المرة السابقة؟
- نعم، لكن هذه المرة كنت وحدي، هم الأوغاد استغلوا الموقف ذاته على الرغم من أنهم جبناء.
- لماذا؟ ما الذي يريدونه؟ ومن كان معك المرة السابقة؟
سلمان يرمي الحجارة الصغيرة التي يحملها نحو القفص، لم يرفع رأسه من الأسفل.
- لا أدري.. بل لأنهم يهابون حمداً، ويدركون أنهُ صديقي، والمرة الماضية حين تشاجرنا كنتُ معه.
على هامش حوار أخيها، جاشت مشاعر سلمى حين طرأ اسم صديقه، استنفرت واشتطت نحو ذاك الكائن المثالي، الأسطوري بعينيها، هو الرجل الذي يثير كل ما فيها، يؤجج الرغبة بداخلها .. لحظات روحانية تبدو وكأنها التداخل اللاشعوري والاندماج الكلي في تلاحم الأرواح.

حمد في مقصف المعسكر، الذي هو عبارة عن حانة ذات مساحة للأكْل والشُّرْب بعد ما قضى يوماً شاقاً في التدريبات، يتلمظ اللقمة ويمضغها بمجرد أن يسد جوعه، فما للأكل لذة طالما تشَّبع خاطره بأمورٍ راودته، و"امتزر" حتى بانت عيناه؛ سأله أحد زملائه الذين معه على الطاولة نفسها:
- ما بك حمد؟ رابع يوم وأنت تسهو بفكرك، حتى لا تأكل بشراهة ؟!
- لا أدري، أشعر بوجود مناوشات في عقلي تتداخل ببعضها، وتتراكم فلا أستطيع أن أفردها..
تتماثل الأفكار، تتواصل أيديولوجياً، فالكون مزيج من الأرواح المتطايرة،

تلف وتدور حوله، والتخاطبات، والأصوات، والتحركات التي لم ترصد بعد، ومنها التي رصدت، وانشرحت، من أصاب في شرحها، ومن اخطأ، لكن الخطأ ثابت، ولم يتغير فجميع المعتقدات تترسخ في الذهن كالنبتة الخضراء الصغيرة التي تحاول مد جذورها في التربة رغم تكدس الأملاح بها، وبعض الحصى المتناثرة في الداخل تعرقلها وتمنعها، وتكون عقبة أمامها، وعائقاً .. فلا يعني أن كل صائب ناجح، معظم الدراسات العلمية الصائبة، خائبة؛ هكذا مجرتنا تسير وتمضي، والأيام تتوالى كلمح البصر، واللحظات لم يستدركها عقل المجنون ذاته .. تسقط نجمة من فضاء الكون لتلمع نجمة أخرى، بعد ما تفانت تلك النجمة ببريقها الناصع، بعد ذاك العنفوان تتلاشى إلى العدم، تنخرط في اللاوجود، كأنها لم تعطِ قط، فما للحياة وما للعجلة سواءً تحركت أم توقفت في مكانها فمرد الأصل لأصله، جميعنا جزء لا يتجزأ من ذا الكون المنفتح، فلا بد من يومٍيأتي لتحلق أرواحنا إلى الفضاء غائصة في أتون الكون .. ليبقى هذا الجسد لا قيمة له مادام منذُ أن خُلق وهو مجرد أداة لتحريك الأسباب القائمة على الحركة المؤقتة في دائرة الزمن الضيقة .

عقارب الساعة تتبختر بخُيلاء لتصل عند السادسة والنصفُ مساءً حيثُ يمكث الأشيب ممسكاً "مدواخه" المعَتَّقَ، الذي نسخ بصمات أطراف يده على خشبة ظهره، من كثر ما أمسك به، والتمست أنامله بحرارة المتلهف للشيء ذاته، تتراكم الأدخنة من فوقه كغيمة مليئة بالماء الوَابِل، يلف غترة الشال على رأسه، ممدداً رجليه على الطاولة مستنداً بظهره على كرسيه السماوي.. مناوشاً أفكاره، يقضي وحدته بتركيباته الفلسفية المستخلصة من الحياة، المستمدة من المكان الذي يجلسُ فيه، معتصراً في داخله حزن لوعة الفراق، مصارعاً نفسه ليعكس غير ذلك في خارجه .. مشقلباً أفكاره تارة مقلباً إياها تارة أخرى.

صوت باب المنزل يفتح من خلف ظهره، خطوات أقدام تتبعها عجلات صغيرة، الأشيب تصغي أذناه للتحركات من خلفه، لكنه منشغل عن الالتفات إلى خلفه، شاعراً بكسل ينتابه مما يجعل جسمه متبلداً عن الحركة .. اختفى صوت العجلات كأنها أوقفت عن الحركة، لكن صوت الأقدام المتحركة، القادمة، يقترب إليه.. وفجأة!

- أبي.

بسرعة فائقة يلتفت الأشيب إلى الخلف، كنورس غائر على بحيرة امتلأت بالأسماك التي تعكسُ لمعتها كلما لامست أشعة الشمس زعانفها الرهيفة

تحت سطح الماء .. ثم يقف مستديراً بظهره نحو ذاك الصوت ببشاشة، وابتسامة تغمرها نشوة الفرح، قائلاً:
- ابني أحمد.
الابن يقترب مسرعاً ليحتضن جسد أبيه، بدموعٍلامست الكتفين بعد غيبة دامت مدة سنة في الخارج، الأشيب يضع يديه على كتفي ابنه وينظر إلى عينيه..
- كبرت يا أحمد.
أحمد ينظر إلى أبيه بعينين ترتجفان شوقاً للرجل الذي يقف أمامه، رغم سنه، لكن لم تتهاون قامته، ووقفته، واستقامته، كشجرة فارعة الطول، كجبل حفيت الواقف عند ناصية مبزّرة الخضراء، يقرأ الملامح، يتلو ما أوحي إليه من تلك المدينة الخضراء، غارفاً من ذاك العلو الشاهق، معانقاً السحب بتباشير الشهب الوضيئة، ثم تحدث قائلاً:
- وأنت كذلك يا أبي، حتى هذا البياض الذي غطى لحيتك، ما زادك إلا وقاراً وتقديراً في صدري، ما يعكسُ ذلك إلا عبئاً حل عليك بعد وفاة والدتي رحمة الله عليها.. فحين سافرت قبل سنة رأيت بك بعضاً من السواد يتزاحم مع هذا البياض، لكن اليوم أرى ثلجاً كصقع ذاب في وجنتيك.
تتطاير الكلمات في ما بينهما كفراشات مسرورة بأجواء الربيع، متباهية بهوائه الطلق وتفتح أزهاره اليافعة .. أحمد يدخل حقيبة سفره إلى الغرفة التي ظل بابها مغلقاً 360 يوماً، مما دعا كل ما فيها يفتقده حتى قوارير العطور الواقفة على تلك التسريحة، تتفاوض في ما بينها وتتحاور، متى سيعود؟ وأطال في الغيبة.

بعد أذان العشاء، حمد على سريره بعد ما أدى صلاته، الغرفة مكتظة، الأصوات تتهافت عليه من كل صوب وحدب كحجارة ترتطم بجدار أذنيه، الجميع يتحدثون، العلاقات تتوسع في مثل هذا المكان، وتتسع معها حدقة الأسئلة لتنفتح من بعد الانغلاق، لكن الفتى يجول في داخله، ما بين الأسئلة المنضوية، متوطداً بعلاقته الداخلية، مبتعداً عن ما يدور حوله في السكن. تثور الأسئلة، تتسرب المعاني من فجوة الروح الغارقة، منسكبة على الأوراق بطراوة الفكرة الحائرة، وحفاوة النظرة السائرة في دروبٍ طويلة قاطعة مئات الأميال الفاصلة ما بين الحقيقة، وما يعكسها ..

الدار لي ضمتكم
تبكي العنا و الضيم
وتصيح من فرقتكم

دارٍغشـاهــا غيـــم
عيني على سكتكم
تلعـي لعـي لفطيــم
في مهجتي رسمتكم
يـا ذا الغــر الحشيم
قاصـد انــا ديـرتكم
باطيـــر ويـــن أتقيم
كحل النظر شوفتـكم
صبري نفد " م" يجيم
يـاهـل الوفــا نظرتكم
فـي مهجــتي واتديـم

تختزل تلك المفردات من مخيلته، مستقطبة جم المعاني من أفكاره الشاردة نحو صورة تعلقت في ذهنه، ترسبت في عقله، منتشياً ببعض الأبيات التي استترت في كمائن نفسه ..

وفي الليلة ذاتها، هدوء " زاخر" يستدعي الأفكار أن تحلق في سمائها، غائصة في مدارات كونها الشاسع، تتلألأ النجوم كأسماك وديعة في حوض صغير، تحركُ زعانفها مهفهفة على بعض النباتات الطالعة، والطحالب العالقة على جدار الحوض .. أحمد في غرفته، والأشيب يجلسُ في الصالة، اعتاد قبل أن يذهب لينام، وتغفو عيناه، أن يشذب ويرتب أفكاره فمنذ أن فارق زوجته لم تغب لحظة عن باله، ولم ينسَ تلك الغرة وذاك الشارع الحقير، ولا استطاع من يومها الذهاب إلى " العراد" مرة أخرى بعد وقوع الحادث، مؤنباً نفسه هو من اقترف هذا الذنب، هو من فعل كل هذا، هو السبب، فالخطيئة واحدة سواء كانت كبيرة أم صغيرة، فجميعها أخطاء لا تغْتَفَر .. فيرد مناوشاً على نفسه، لا.. بل هناك أخطاء تغْتَفَر، فخطيئتي ليست ذنبي فحسب، يوجد طرف آخر، هو من جنى علينا فليتحمل الذنب ..
كثيراً ما يشعر بالخزى وهو يجرجر أذيال هزيمته أمام هذا القدر المحتوم، تتضعضع قوته، كأنه طفلٌكبير بحاجة إلى الحنان، إلى حضن يلمهُ بعد هذا الشتات العارم الذي انتابه .. رافعاً رأسه ينظرُ بعينيه إلى النافذة العالية في وسط تلك الصالة كمن يتصيد بفخاخ الذاكرة عصافير الأحزان في حقول السنوات الماضية، الضائعة.

فجأة..
صوت شيء ما يقع على الأرض من داخل غرفة المخزن لصقَ المطبخ،

ألتفت الأشيب منادياَ:
- أحمد .. أحمد
هدوء، لا أحد يجيب، صوت أقدام تتحرك بسرعة، ثم نافذة تغلق بقوة ..
هرع الأشيب متجهاً إلى المخزن، هناك آثار أحدٍ ما كان في الداخل.
وقف متبلداً ينظر بتلصص إلى ما حوله، عيناه تنزلقان إلى تلك النافذة مساوراً فكره، متسائلاً ما بينه:
- من كان هذا السافل المنحط؟ وماذا كان يُريد؟ آآآآه إن وقع بين يدي للقنتهُ درساً لن ينساه قط.
كشت مشاعره، وانبثقت قواه الكامنة كرشحة حبر إذ تسقط في كأس ماء، فسرعان ما تتنشط خلاياه المرهقة، المرتخية وإن تضعضعت قواه كما كان يتصور ذلك.
على سريره بعد ما اطمأن على ابنه أحمد وهو نائم في الغرفة المجاورة، يتلمس أفكاره، ويتحسسها، محاولاً استيعاب ما قد حصل قبل قليل.
مبتسماً فيما بينه، منسلخاً عن ما كان عليه في السابق؛ ها هو موسى يجمعُ قواه، فاللحظات هي التي تحكم المرء وتربطه بتصرفاته، لا يدرك ما في داخله سواء كان من وهن أو شكيمة أو ضعف أو مَكِنَة.. حين يحكم على نفسه من تلقاء لحظة عابرة قد اقترف ذنباً في حقها، كل تصرفات هذا الجسد لا تعكس ما بداخله وما يخفيه، بل البعض من تلك التصرفات، ولكن الخافي أعظم من ذلك.

في الصباح من اليوم التالي، استيقظ أحمد نازلاً من غرفته إلى الصالة، حيث كان الأشيب يجلس كعادته متصفحاً بعض الصحف مرتدياً نظارته الطبية التي يضعها على نصف أنفه، غطّى أطرافها اللون الذهبي غالباً على جانبيها الذي لبّس بالخشب الأملس .. أحمد يقف أمامه؛ لم ينتبه إليه الأشيب، منهمكاً في القراءة، ظل واقفاً حتى لا يزعج أباه إلى أن رفع الأشيب رأسه ناظراً إليه وهو يقول:
- أهلاً بك بني، صباح الخير، ما الذي أيقظك؟
- أهلاً بك أبي، لا شيء.. اعتدت أن أصحو في مثل هذا الوقت وأنا في الخارج.
يضحك الأشيب قائلاً:
- اعتدت أن تصحو أم صوت كلب جارنا أبي سعود الذي أيقظك؟
قهقه أحمد قائلاً لأبيه:
- جارنا عبيد كيف له أن يتحمل مثل هذا الكائن في منزله، يصدح بصوته كمعلق في مباراة نهائية حاتمة، صوت نباحه يرن في الأذن كأنهُ معي في الغرفة، حتى تكاد الطبلة تفقع.
ردّ الأشيب ضاحكاً، وهو يقول:

- شعرت الآن بأخيك، حين كان يُحدثك عن هذا الكلب المزعج في الهاتف؟
ثم يستطرد بلهجة منكسرة:

- مسكين حمد، المنزل ظلام من دونه.
أحمد امتلأ صدره بحشرجة جاثمة، حيث إنه لم يَر أخاه منذ فتره طويلة، مهمهماً متذرعاً بالانشغال بهدف الانصراف، مستديراً بظهره متجهاً نحو المطبخ، موضحاً بصوته:
- أبي، سأحضر لك معي كوباً من " النسكافيه".
- حسناً بُني.
الأشيب لا يُبيّن لابنيه أنه مُدخن، أو يمارس عملية التدخين أمامهم معلناً فحولته الأبوية، يجلدُ نفسه على ألا ترغمه على حاجة تؤثر فيهما، وحين تحاول جامحة يجرها ويجبرها على أن تُطيع رغباته الشعورية، ممسكاً زمام الحقيقة، مدركاً أنهُ القدوة نصب أعينهما، المثال والتمثال الذي رسخ في عقلهما، والمرجع الذي يستندان إليه، والناصح الشارح، الموضح لكل الأمور التي تغشاها ضبابة الجهل في داخلهما .. وعلى جناح الأشواق المتناثرة في مدارات الكون، يضع قلبهُ واقفاً عند حافة الألم، راجياً تلك الآمال والأمنيات المفطومة عن حليب الذات المتوارية خلف جدرانها الطينية المتهاوية، مستظلاً بأفكاره عن لهيب الأشواق الحارقة تحت سدرة الغاف الوارفة بأغصانها، وعذوقها الممتدة إلى ناصية القلب.

سلمى.. ما تراخت رغم صولات الأحاسيس المبعثرة، وجولات المشاعر المتشتتة في داخلها، يتوارى الشوق قهراً في سراديب الحجاب، بينما يتناول أخوها الإفطار مع والدته، وهي تجلس ما بينهما، لكن تتسوّر الدنيا عليها بأغلال الكبت، وتخيط الطيور أكفانها، وينام الوقت مذعوراً، يعتريها شيء من الفضول، وكأن سيف الزمن يغتالها، لكنها تبقى متحدية الموت بعنفوانها المفرط بجسارة.

وفي منزل آخر صغير يقع بالقرب من منزل موسى الجهاري، تدور فيه الحوارات السوداوية كمثل بقعة زيت ملساء تنزلق الأحاديث العدوانية من أفواه أناس ضلوا، ارتكبوا تلك المعاصي، ثم باتوا يغتسلون في الرذائل حتى إن ناءت قلوبهم بالحقد والضغائن الحمقاء، العمياء .. مات والدهم معتوق، وظلوا هم يعيثون في الأرض فساداً ما بين الأزقة والأرصفة، بينما تعيش والدتهم مع زوجها الثاني في دبي، والذي أنجبت منه ثلاث بنات

عكس زوجها الأول.
يتحدث مفتاح أكبر إخوته واقفاً أمامهم كمعلم فاضل، يشرح لتلاميذه قائلاً لهم:
- ماذا فعلتم ليلة أمس؟ فلم أسمع منكم أي نبأ عن ذاك التافه؟!
فرد عليه أخوه الأوسط:
- دخلنا إلى المنزل من نافذة صغيرة كائنة في المخزن واتجهنا إلى المطبخ وكان والده يجلسُ متسمراً في الصالة، فحين شعر بتحركاتنا نثرنا السم في أرجاء المطبخ وعلى الأواني والأكواب ثم خرجنا بسرعة من النافذة نفسها من دون أن يرانا.
يبتسم مفتاح بوقادة عارمة، تنضح من جسد مفعم بالحقد، متلثماً بشال الحسد، وأعرب قائلاً:
- أتظنون سنسمع اليوم عن خبر وفاته؟
تحدث أصغرهم يونس مضيفاً:
- فالسم الذي وضعناه من أخطر الأنواع فإن لم يمت، فسيصاب بالشلل الدائم.
تورد وجه شيطانهم الأكبر وانشرحت معالمه القبيحة ذات السحنة الحنطية والأنف الكبير " الأفطس" ، آملاً ما يتمناه بأن يتحقق لا محالة، فخوراً بإنجازاتهم المثالية.

وبعد عدة أسابيع..
تتحرك صخرة الفؤاد متزحزحة عن مكانها، تتسرب أشلاء من كتلة ضوء إلى عتمة النفس، فتأخذ ذاك الشهيق بعمق مزفرة عن آهاتها الكامنة التي تسربت إليها في الداخل .. يقف الفتى عند باب المنزل قبل أن يدخل حاملاً حقيبته، رافعاً رأسه، مُغمِضاً عينيه، منتشياً بلحظات غارقة في الفكرة القاتمة، ثم يمضي متجهاً إلى الصالة حاملاً كماً من الشوق لرؤية الأشيب وأخيه أحمد قبل أن يحمل تلك الحقيبة الزرقاء .. فحين فتح باب الصالة، الأشيب يجلس أمامه على الأريكة مواجهة الباب، وعيناه تحملقان إلى الفتى بتبلد خاشع، وتنزفان الدمع من مقلة العين كدم طائر جريح، اقترب الفتى مسرعاً ثم ارتمى في حضنه، أجهش الأشيب باكياً دون أن يتمالك نفسه، ومن دون أي تردد، وهو يقول:
- حمد.. توفي أخوك.
تقهقر الفتى مصدوماً تتطاير من عينيه الأسئلة الجامحة، ينظر إلى عيني الأشيب التي بانت بها تلك العروق الحمراء الدقيقة، وهي تستعر كجمرة موقدة، كنار ملتهبة .. أيقن الفتى أن الخبر لا تسوق له وشاية، وأن الحدث مصاب وجلل، فبدأ قلبه يخفق مذعوراً كجناح ذاك الطائر الجريح، والهاجس يفيض بألسنة التوجس العارمة..
- ماذا حدث يا أبي؟
بصوتٍ متحشرج يكاد يتحلل مع ذرات الهواء المنتشرة، وهو ينظر إلى شفتي الأشيب المرتجفتين.
قام الأشيب يسرد القصة المأساوية وقلبه المنفطر حزناً على ابنه أحمد إلى أن خر الفتى جالساً على ركبتيه في وسط الصالة، قائلاً:
- يا لهم من أوغاد ومجانين، وما ذنب أخي في ذلك؟
الأشيب بصوته الحزين الذي تتدحرج بنبرته كريات الأحاسيس في اتجاه الشهب والنيازك المحترقة الآتية من نحو السماء، التي وقعت على هذه المجرة، يتضارب بداخله كمٌّ من المشاعر المتلخبطة، ولم يدرِ موسى لأي غبن يلتفت أو أي منهم يتفاداه ويتحاشاه أو يتغاضى عنه، قائلاً للفتى:
- كانوا يريدون قتلك، حسب أقوال الشرطة.

كيف امتد هذا الحقد، لينال الحزن عيوناً، وينال القلب شجوناً، وفي غمضة عين تنطفئ الأحلام، وينتفض الموت في داخلنا، وينام الوقت كسولاً، وينام الصوت خجولاً، وما هذا الموت؟ .. في عمر الدهر كتبنا تاريخاً، وقرأنا سطوراً وسطوراً، مسعوراً هذا الوقت، والصوت نباح لا يجدي، فأن تسكت خيراً أو تلقى الموت!

وما لهذا الإجرام، ينسلخ الواحد منا لمئات الأجسام، يتضوّر جوعاً، يحلم بالأصنام، والأغنام، والأنعام، كالنهر نفيض نفاقاً، ونفيضُ خصاماً .. تقلقنا جداً هذي الجرذان، في الدم تسافر في الأحلام، وأشياء أخرى كالأسقام، وأجساد زرعوا فيها الألغام، حتى باتت تتفجر، من خوف أو من إرغام .. وما هذا العهر، إلا أمراض تتناسل في سر، تعتصر الرجس أجاجاً، وتستفتي العهر.

وبعد تسعة أشهر..
دارت رحى الأيام، وأدبرت الأحزان بظهرها متوارية خلف جسد الماضي مستندةً على رف النسيان العتيد، تتفتق السماء وتفتح أبوابها المغلقة منذ آلاف السنين، تنتشي تلك النجوم في فضاءاتها الواسعة، تتمحور الفكرة وتتبلور باحثة عن ذاك السؤال المجهول، تتعرى الأسرار، وينام الصبح على كفيه، بعد ما استرخت كل الأشياء.
سلمان يصحو اليوم مبكراً من فراشه، مستيقظاً بفرحة تغمر وجهه، يقفز من سريره على الأرض، كطائرة مقلعة، أو كطائر يفرد جناحيه مستعداً للهبوط، مسببة تحركاته بعض الانزعاج لأخته وهي نائمة في الغرفة نفسها، يدندن بصوته مستطرباً على غير عادته، فدائماً ما ينتابه الكسل والخمول حين يستيقظ من النوم ..
تفتح عينيها سلمى، تذوب إشراقة الشمس، تنخرط الأشياء في بعضها، تنحني زوايا الغرفة بعد استقامتها الأبدية، ولا تزال سلمى تضع رأسها على جنب من الوسادة، تدعك جفنيها، تلحس لعاباً ساح بين شفتيها، ثم

تلتفت منقلبة بجسدها على طرفها الآخر وهي تنظر إلى أخيها المزعج متنهدة .. وفجأة قبل أن تنهره، دخلت والدته إلى الغرفة قائلة:
- ما بك مستيقظ بهذا النشاط، وبصوتك الهادر؟
وكأنها أحست بمشاعر سلمى، وما الذي كانت تنوي قوله، فرد سلمان وهو ينظر إلى والدته:
- سأذهب إلى صديقي حمد، يوم أمس تخرج في الدورة العسكرية " الخدمة الوطنية " ، لم أره منذُ وفاة أخيه – رحمة الله عليه.
اعتدلت سلمى، وفغرت فاها بدهشة خفية، وهي تنظر إلى سلمان بقلق وتوجس، تعتريها أفكار في أشياء كثيرة، وكبيرة في الوقت نفسه، يتجدد في رأسها الحلم، ويتمدد هذا النخل حقولاً، تتوارى كل الأشياء بعينيها بعد ما كانت عابسة، يائسة، بائسة.. ترفع رأسها إلى سقف الغرفة مهمهمة في ما بينها:
- لمَ لم يأتِ إلينا؟ أو إنه لا يشعر بما أشعر؟
ثم تشيح بوجهها واجمة، وهي تنظر إلى الفراغ ما بين مصراعي باب الغرفة حيث إنه ظل مفتوحاً بعد ما خرج سلمان ووالدته، ظلت سلمى في مكانها تحدق إلى شجرة اللوز وترمق أغصانها التي تقع عند خاصرة فناء المنزل، مشتعلة ذاكرتها بوقيد الآمال المكلومة المتناثرة عند شفة القلب المنقبض، تنظر إلى ذاك الطائر الصغير بإمعان، العصفور المنهمك في بناء عشه المكون من بعض أوراق السعف والنورات الطرفية من اللوزة نفسها ونسيج من الحبال .. سلمى تلج التساؤلات في داخلها:
- لمن هذا العش يا ترى؟ هذا الكائن يحاول جاهداً أن يبني بيته لإرضاء من؟ .. طرف آخر لا صلة له بذلك، ليكسب قلبه، ويستحوذ على رضاه، باحثاً عن ذكورته بجهوده المبذولة .. كل الكائنات منسجمة في الحياة، ملتئمة مع ذاتها الفطرية، ما بال هذا العقل هكذا! لا يفكر.. فلنفرض لو أن البشرية خلقت على الفطرة، دون أن تتحكم في تصرفاتها المصطنعة، مثل باقي الكائنات على البسيطة، تنقاد خلف سجيتها، تعيش يومها الحالي، من دون أي ذكريات، تعيش هكذا معدومة الأمس، متجاهلة قلق المستقبل ..
تتناثر التساؤلات المفطومة عن حليب الفلسفة في ثدي الأيام، يتشابه بعضها في مدارات الأسئلة الحائرة، تتقارب الأفكار، تتمحور في كتلة واحدة، وتبقى متلاشية كالفراشات الواثبات التي تهفهف بأجنحتها على شاطئ أغرّ، مداعبة وشوشة الموجة، مشاغبة بعض " الطحلبات" المنبوذة التي قذفتها التيارات البحرية نحو السِيف، معاتبة تلك النسائم الغائرة على حرشفياتها الرقيقة، الدقيقة التي هي أدق من خيط الذاكرة المختزل كشراك العناكب في جذور الرأس ..

تنمرص اللحظات متسربة من بين أصابع اليوم، متغرغرة في حلق الغد، تمضغها أنياب أشبه بأنياب القسورة، التي باتت تعلكها حتى غارت في ذاتها منسلخة عن ثوانيها وبعض أجزائها المهدورة.
وفي المساء.. تندلق حبال الروح متدلية من تلك السماء المتناهية، ممتدة إلى ذاك الجسد، تحتبس المشاعر، تضيق حدقة العين وهي تنظر إلى العراء الواسع، يتنهد الأشيب بحرارة، يقف على التل ذاته، يمرغُ بعصاه الرمل بإحدى يديه، مقطباً حاجبيه، يفتل شاربيه الغليظين، معتصراً شفتيه، مهمهماً:
- حين أعود بادئ ذي بدء لحروبي الهمجية، يحرضني هذا الكامن في قلبي، تحرضني كل الطرق، أكانت صوفية أم بوذية، لا أشواق ولا حتى أشواق الأشواق، تختزن الريح بين الأحداق، تمارس كل فجاجتها، حتى هذا الغبن في جسدي، أصبح ذاكرة رملية.
ينتفض الجرح، تسقط أمطار القلب، تتحجر كل القبلات، مساء يأتي في غير الموعد، أشياء أخرى تتمرد، هناك تدفن أحقاباً من زمن، تقارع جرحاً باقياً لا يخمد، وجذراً يتنامى في الأشيب، يرنو بعيداً متلمساً شغاف الحقيقة، خلف سياج القلب المنيع الذي كاد يتهشم، ما بين المطرقة والسندان، ألفاظ الفتى المباغتة باتت تطرق صدره عند حزة الغداء حين كان يحادثه، ولكنه لم يبيّن بأي شيءٍ أمامه، ظل منقبضاً صدره حتى جاء إلى هذا التل، وسط هذا العراء، ليتخلص من هذا الثقل الذي حل عليه ثم يعود أدراجه إلى المنزل تاركاً آهاته في الخارج كي لا يقلق الفتى في شأنه، ويبقى رجلاً هصوراً في عينيه، عكس ما تخفيه أستار الظلام الدامس وغياهيب الليل البهيم.
وفي المساء نفسه.. عاد سلمان من منزل صديقه حاملاً تلك الأمنيات والآمال وبعضاً من الأخبار التي ظلت تفرك أجفانها بحثاً عن المأوى، متطهرة من يباب العمر، مغتسله من براثن السنين العجاف، دخل إلى المنزل في عتمة المغيب، أخذ نفساً شهيقاً بقوة، وقد بذل جهداً مضنياً في المشي إلى أن وصل، لم يستطع التحرر من صراحة الفتى وكأن حواره ربض في العقل، كلامه يلج ويعج في لب الرأس؛ بينما سلمى في الغرفة، تنتظر أخاها بعد ما تعشت والدتها، وتناولت حبيبات الدواء الموصوفة لها بعد وجبة العشاء، مستلقية سلمى على سريرها، رافعة بصرها، محدقة في السقف، تردد البسملة، وتقرأ المعوذات، دخل سلمان إلى الغرفة ذاتها، اعتدلت سلمى، ينظر إليها بعينين شاخصتين مقترباً منها، ثم يجلس بجوارها على السرير نفسه، مهمهماً يقلب رأسه يمنة ويسرة، ثم يطرق قائلاً:
- سلمى، صديقي حمد تحدث مع والده اليوم ويريد أن يتزوجك، ما رأيك

في ذلك؟
وكأن كلمات أخيها جاءت كصقع نزل على أرض جدباء، تفرست في ملامحه، محدقة، تفكر قليلاً، ترفع يديها زائحة بعضاً من خصلات الشعر الناعمة عن جبينها متململة، تلعق ريقها الناشف، ثم تجيب في حياء:
- لا أدري.
يبتسم سلمان، وهو يعلم ما تخفيه سلمى في كنائنها، في جعبتها الكثير من الحكايات والروايات البطولية لصديقه، ينظر إلى عينيها الثابتتين في عينيه، متأملاً في وجهها المملوء بالفرح، متقصياً سعادتها الغامرة، وإن حاولت أن تخفي ذلك.
بعد مضي وقت من حوارهما.. سلمى تسرد وتسترسل، تردد البسملة، بينما أخوها سرعان ما غاص في سباتٍ عميق على سريره القريب من سريرها، يتردد صوت شخيره في أذنيها، تجوب باحثةً في مخيلتها، مستطردة ملامح الفتى، كونها تحفظ وداً قديماً لهذا الشاعر المرهف، لهذا الرجل الأسطوري في عينيها، لم تستطع التحرر من صورته العالقة في ذهنها.

وفي الليلة ذاتها.. نام الفتى، لكن العشق لم ينم في داخله، ينمو في خلايا جسده، يرنو إلى البعيد، تتفتح أزاهير قلبه متباهية في أتون الربيع الزاهي، ولا يزال الأشيب منسدحاً على سريره، يقض العينين، متسعة حدقتاه في الظلام، متسللاً من عنق زجاجة القلب الشفافة، غائصاً في أحشائه، نابشاً عن الحقيقة الغائبة، بعد ما اشتد وجيب قلبه، أحس بلهيب ساخن يكوي وجهه، كأن غضب جهنم يزمجر في صدره، تتطاير شرارات الألسنة الموقدة، تتفتت صخرة الفؤاد، تغلي المشاعر مجلجلة، كأن براكين الإكوادور في داخله، حمم بركانية نشطة في صدره، متنهداً لافظاً أنفاساً حارة حتى إن سكنت روحه، وهدأت عيناه الزائغتان، واستقرت جفونه المنتفضة، خائضاً في عباب نومه العميق.

صباح جديد يشرق، يصحو الفتى على صوت زقزقة العصافير، محلقة مشاعره كفراشة تلامس الوجدان برفرفة أجنحتها الملونة، مستلهماً أبيات الصباح الغائرة على قلبه:
سارحٍ هالطير من عشه
مغردٍ والرزق يسـعي له
المشـــاعر هشـــةٍ بـشه
و الغـــلا يروي تفاصيله
في هواه الروح منتعشه
من سنه لو زود نسري له

ثم تبسم مراوغاً تلك الملامح، يحس برنين داخلي، بحنين لشيءٍ ما، صورة سلمى تقفز في مخيلته، إلى أن غابت أشياء كثيرة عن باله في الوقت نفسه، كأن الزمن يتعمد إخفاء الأشياء الثمينة، قاصداً ذلك، فالزمن جائر لا يمنح الأشياء دون مقابل، تمضي اللحظات رافعة أخمص ثيابها مهرولة نحو مستقبلٍ يقف بعيداً بوجهه الشاحب.. يجلس الأشيب في الصالة، محاصراً بالظنون، مقيداً بأغلال الشوق القديم، مكظوماً، والحرقة تشب في جوفه، والحيرة تنهش جسده الذابل بأنياب لا ترحم، يتأوه متمتماً:
- الفكرة تحتضر، ولا تجدي عمليات الإنعاش الآن، فاللحظات حاسمة وهذا قدري المحتم، سأبقى وحيداً هنا، مع نفسي.
كأن السماء تندلق، تجثم على صدره وتخنقه لتمنعه من التنفس تماماً، هناك خذلان كاسح يعتريه، لم يشعر قط بمثل هذا الخذلان المريب في حياته، كونه ذا وقار وكبرياء وعزة مع عفة نفس وذات مرجع يلجأ إليه كل ذويه، لما يتمتع به من ثقافة وعلم ومنطق وحكمة، لكن اليوم تبدو مشاعره في مأزق، كأن الأرض انشقت من تحته وبلعت بدنه الواهن .. تناهى إلى مسمعه صوت خطوات قادمة من الخلف، التفت الأشيب نحو الصوت بعد ما كان يتلوى في خضم صمته، راسماً تلك الابتسامة المصطنعة على وجهه البائس، منذ أن أخبره الفتى بأنه يريد الزواج، الأحاديث في داخل الأشيب باتت مبعثرة وفي فوضى عارمة، لا يدري من أين يبدأ بالحديث، من أين يمسك تلابيب الحوار، يعتصر فؤاده بالأمنية المكظومة، ولا هناك كلمة تبل ريقه من الظمأ العاطفي الذي انتابه، يرى نفسه دائماً هو من يقف في وجه الريح العاتية ليصد لعنتها، لا سواه، ولا أحد يدري بمَ تفعل تلك الرياح بعتاده، فكلِ ما هاض ما في جوفه ارتقى

ذاك الكثيب الرملي، يتوغل في العراء رامياً آهاته الحارقة بين زرقة السماء المفتوحة والأرض الممتدة، الأرض التي اعتادت على الاحتضان، الأم المشحونة بالدفء، ثم يعود أدراجة ليسرد بقية حياته المحتومة ..
يجلس الفتى بجواره، الأشيب يدعك مشاعره قائلاً:
- صباح الخير يا بني، أرى الحب يترنح في مقلة عينيك.
تبسم الفتى، كأن الأشيب لامس حفنات القلب بكلتي يديه، لامس شغاف الحقيقة، تنزل خيوط الحب على قلبه، ملتفة حول مشاعره الهائجة، مدلية أطنابها .. الأشيب رغم تصنعاته المختلقة إلا أن السعير يحتدم في داخله، ولكنه يدوس على نفسه كلما راودته الأفكار المراوغة، تختلط لديه الأحزان والآلام بالغيظ، ينتابه شعور غريب، بينه وبين نفسه يعيش في حالة اللاوعي الغامضة، كل ما يجري حوله عبارة عن تزييف للحقيقة، كأن الأرض بمجرد دورانها وظيفة تؤديها بثمنبخس، الشمس حين تعتصر حرقتها مجبرة على أن تبيد قواها الكامنة من أجل الآخرين، والقمر يعيش هكذا على كذبة راودت نفسه وصدقها، ثم يعود إلى الصحوة مجدداً:
- آآآه، هكذا حين يسلب الكائن فرصة الاستيقاظ، خائضاً في اللاوعي.
بصوت خفيف قالها الأشيب، الفتى لم تلتقط أذناه تلك التمتمات الخاطفة، مرخياً رقبته، يقلب الصحف الملقاة أمامه ولكن ذهنه منشغل بغير ذاك الورق الأصفر وخشخشاته الصادرة، فمنذ أن طرح فكرة زواجه شعر بتغير جامح يكتسي جسد والده، تغيرت حالة والده رأساً على عقب، رغم تلك المكابرة التي يبديها والعصيان للجرح النازف الذي يعج في داخله، لم يبدِ أي شيء من تصرفاته تشير إلى ذلك، أو أنه لم يرفض الفكرة من أساسها، فقط اكتفى بابتسامة حائرة ثم انضوى شارداً بمشاعره المهزومة مسترسلاً صهيل البداية، مفتشاً عن صليل المداهمة التي تحتوي ذاته المجهمة .. استبدت الفكرة بالفتى، بات يستقطب مشاعره بحثاً عن مأوى ينجيها من ريحٍ عاتية، بدت كطائر صغير ترهقه الريح، تشتد الرياح وتعصف في صدره، الأمواج هائجة، كأنه يمتطي ظهر قارب خشبي صغير حاملاً مشاعره بكيس القلب النابض خشية من غضب السماء، مجدفاً بأحاسيسه نحو جزيرة الروح الآمنة، المستقرة.

لا يزال الحلم يمد جذوره في فناء الزمن الواسع، تشع شمسه في أتون الروح بالوميض، متسرباً ما بين أجفان الحقيقة الغائبة، الهاربة، مقترباً من واقعٍ متوتر، يرجف، خوفاً من أن يخوض معركة المصير، هناك بريق نجمة مقضومة، مضغتها أسنان، ثم علكتها بفكٍّ غض، يتفتت جزء من ذاك البريق إلى أشلاء، لتصبح جلاميد متناثرة في جوف ذاك الكائن، لكن يبقى جزؤها الآخر يلمع عالياً، ليس هناك من يلمس الأجسام الصلدة اللامعة والاقتراب منها. كل ما حولنا صامت، حتى الأحلام تبدو صامتة، وتبقى أحداثها تدور في معطيات هذا الكون، وهناك أيضاً أحلام تبدو هرمة، شاخ بها الزمن وطال صمتها لكنها تجوب في فضاءات الروح منتهزة الفرص المباغتة لأن تتوطد ملتحمةً بتلك الأيام المتوالية.
تتقهقر مشاعر الفتى، منتحبة، بظنون تساورها، مدركة أن الخسارة فادحة، كيف تكون هذه الجسارة الصارمة غير المتوقعة من قلب الأشيب الذي لم يشاطره في بناء تلك العلاقة العاطفية، كيف يمكنه اليوم تكبد هذه الخسارة، خسارة قلب سلمى، وهل بإمكانه فعلاً نسيانها، ولماذا؟ تتناثر التساؤلات في صندوق رأسه المغلق، يهمد الفتى، منكفئاً تحت فراشه بعد ما خرج والده لزيارة صديقه أبو سعود كما أبدى قائلاً، فإنه اعتاد هذه الأيام الخروج من المنزل وقت الضحى قبيل صلاة الظهر بنصف ساعة، ثم يعود بعد الصلاة متأبطاً ظنونه المرتجفة، التي باتت تتلاشى رويداً رويداً .. ظل الفتى في طيات الفكرة يحوم متشبثاً بتلك الأفكار الجامحة في ذهنه وصهيل سلمى لا يغادر مخيلته، كان يحلم بأن يشب، ويكبر، وتكبر مشاعره، تنمو آماله كنمو عضلات جسده الفارع، كما أن تشب سلمى وتكبر، تنهد ثدياها، وتفرع ردفاها بارزة لتكوين معالم جسمها الأنثوي الساحر.. تتفاوت الأحلام كقبلات على ثغرٍ امتزج بمسحوق الشفاه الأحمر، شفتان مبتلتان بعذوبة الأحلام المنحرفة، المراهقة، التي تسير حيثما تريد شهوتها المكبوحة، المكبوتة بذلك الجسد المشحون بفطرة الاختضاض العنيفة، تتهاوى الأمنيات المزروعة في حقول الروح التي كادت تعشوشب بأزاهير الطموحات الغارفة بجذورها وسط تربة القلب القاحل..

كلما أشرقت الشمس مسترسلة بإشعاعاتها المختزلة من لهيب الروح، تنزلق خيوطها الذهبية من تلك السماء الباهية، الزاهية بلونها السماوي الخافت، لكن بإشراقاتها ترفع الحجاب عن وجه العراء الفسيح، تكشف المستور في هذا الفراغ الممتد، تنسلخ الأمنيات المذعورة، متعرية، تمضي نحو ربقة المجهول، معتصرة بالفجيعة التي تخبئ رأسها بذاك العراء الداكن، نازلةً إلى الحضيض ..

وفي المساء يجلس الأشيب على التل القريب من المنزل، يسوق قطيع أفكاره إلى ملاذٍ آمن، متورماً بالفجيعة الشائكة على قلبه، متذمراً، ينظر إلى الفراغ الضيق بعينيه الشاخصتين، تضيع حدقتاه في التيه العميق، تتوارى مشاعره خفية عن ذاك التمرد الفطري، العنفوان الفحولي، بلغ الفتى، وبدا كأنهُ يكبر، يغلظ صوته ويجهر، تنبت بعض الشعيرات فوق شفته العليا تاركة اخضراراً طفيفاً معلنة فحولته القادمة، ولكن يبقى القدر واقفاً عند عتبة الأمنية، مستثقلاً تلك الأحلام الوردية، متلثماً بوشاح القرار المكين ..
ينطبق الظلام الدامس، يرخي سدولاً غامضة، نابضة، كخفقات قلب الأشيب، شاعراً بعظم المأساة التي تعتري جسده، تطوقه بمرارة الحدث الجلل، وما قد رآه بأم عينيه، تثب الأفكار في رأسه، كقفزات العناكب الشرسة على فرائسها، منتشرةً في فناء الرأس، منتثرةً ما بين أزقة العقل، يهيم الأشيب منشغلاً بفكره، عائداً إلى المنزل مستلهماً آية الحكمة، والحنكة في تقصي الأمور المتوارية خلف قناع الحقيقة، ماسكاً زمام النبوءة من ناموس الكون، وقاموس الحياة.

في صباح اليوم التالي، كان الباب الحديدي، الشاهد على الزمن، يشهد حدثاً درامياً، كما انه اعتاد كل صباح على أن يرى هذا المشهد، ينظر إليهما واجماً، غاضباً، متلمساً في عيونهما الرذيلة الشائنة، الخائنة، متبلداً تتساقط قشور صبغته قهراً، مدركاً أن الأحلام ستبقى أضغاث أناس واهمين، يحملون داخل علب رؤوسهم صوراً غير واضحة باتت ترتسم في مخيلتهم، كالسراب لا يمكن لمسه، ويمضي الحلم سالكاً ككائن يحتفي بالأرواح المتطايرة من حوله .. وفي الصباح المأزوم نفسه، يستيقظ الفتى نازلاً إلى الصالة، بينما الأشيب يعد الدقائق والثواني لكي يتخلص من ذلك الثقل الذي راوده، والفكرة التي لازمته طوال وقته، يقترب الفتى، ينظر إليه الأشيب قائلاً:

- أهلا بنيّ، صباح الخير.

يجلس الفتى بالقرب منه، مسترخياً، ويرد:

- صباح النور يا أبي.

الأشيب ينظر إلى ساعة يده مردفاً:

- حمد، اليوم لن أذهب إلى صديقي، سأعطيك ورقة بداخل ظرف مغلق، اتجه به نحو منزل صديقك سلمان، ثم افتح الظرف حين تصل إلى هناك واقرأ ما كتب بالورقة.. الفتى انفرجت أساريره، ابتسم، مد يده ليتسلم ذلك الظرف الغامض متسائلاً:

- ما بداخله يا أبي؟

- ستعلم قريباً يا عزيزي.

وقف الفتى، يشعر برغبة في ترك المكان ومغادرته بسرعه نحو ذلك المنزل، نحو ذلك المشهد الخرافي في عينيه كما كان يتصور، متأملاً أن يرى ما يتمناه، ولكن الأمنيات تعود مغلولة، تنطفئ شمعة الآمال، تاركة ظلام الأسى والفقدان يكتسح براحة القلب.. يصل الفتى إلى المكان نفسه، تقفز الصدمة نحو نواحٍ مزرية، يلتهب فؤاده مستعراً باللحظة القاسية، هز المشهد جسده المنهك، ينظرُ جامداً إلى الخيانة وهي تترنح أمام عينيه، تعتصر المشاعر واهنة، محتبساً قلبه خلف السياج المنيع، يرصد من بعد تلك الضحكات المتسربة من فاه سلمى، حيث إن صديق سلمان يبادلها بابتساماتٍ زائفة، وعيناه الجاحظتان لا تحملان ذلك الحب العميق.

شعر الفتى وكأن قدميه تهويان في جرف ذلك الشارع اللعين، في جرف يقود إلى طريق الوقن السحيق، تغوصان في الإسفلت ذاته، وكأنها تغط في ذلك القار، بات جسده يرتجف ألقاً، متوجساً، وعيناه تتربصان المشهد الحزين .. تستبد الفكرة في نفسه، وهو يستقطب ذلك الحب الغابر الذي بدا وكأنه فقاعة دحقتها أمواس الهوى الشائكة.

يتقهقر الفتى متسرباً من واقعٍ متشرذم، واقعٍ لا يحمل في طياته معنى

الحقيقة الكاملة، في جعبته تبدو الحقيقة شبه غائبة، احتد الفتى محتدماً، يرفع بصره إلى زرقة السماء، ينظر إلى الأفق البعيد، يرمي الفراغ بنظرة الاحتراق الشاخص، صار يهذي، مولولاً بمشاعره المقبوعة:
- آآآه، يا لهذا الحب من خدعة بصرية، يحل كضبابة تغشى العين وتحيل عنها الرؤية الواضحة، حتى يبدو الشخص كطائر أعمى، يصفق بجناحيه ولكن لا يعرف معنى السماء، ولا يعي لأهمية الفضاء الرحب، مجرد يحرك ريشه مندفعاً نحو الأمام، وإن سألته ما السماء؟ لأجاب السماء من هنا وهنا وكل مكان.
يتمتم الفتى لافظاً ما بداخله، يذوب القلق، يأخذ تلك الأنفاس الغليظة ثم ينفخها جملة ممتزجة بحرارة صدره الكامن، مستديراً بظهره عائداً أدراجه إلى المنزل.. وفي الطريق ترامت إلى ذهنه تلك الورقة التي يحملها بجيبه، أخرج الظرف وهو يسير بخطاه، فتحه، سحب الورقة المطبقة في داخله، وقف فجأة في مكانه، لم يتصور ما كتب فيها، عكس ما كان يتوقع تماماً، كان يظن أن الأشيب حين أعطاه تلك الورقة كانت تحمل بعض الكلمات التي تلامس شغاف قلبه، أو أنها قد تكون الرسالة مجرد وسيلة ليطرق باب سلمى بها، أو إنها همزة وصل ليذهب بها إلى سلمان.. إلخ، ولكن المفاجأة أتت في مضمونها عكس جميع هذه التصورات التي راودته منذ أن حملها، وجد فيها عبارة صغيرة جداً برأس الورقة كتب فيها:

" أتمنى أن تكون الرسالة قد وصلت، فأنا حملتها عبئاً منذُ أن أحبَبَت "

انتهت.. وبقية سطورها فارغة، بيضاء.
فطن الفتى، نضجت الفكرة، قلبها يمنة ويسرة، تأكد بما يقصد الأشيب من تلك الرسالة، خفض بصره، متصلباً، ينظر إلى الثرى، يلقي تلك النظرات الجاثمة على الأرض، يبصق في وجهها الشاحب، متيقناً أنها هي التي من تنجب اللئام ثم تحتضن أجسادهم القذرة، اغرورقت عيناه بالدمع، زفر ثاغياً، ثم رفع بصره إلى السماء، تلمع عيناه بالدموع المتزاحمة حيرة بداخلها، يشتد به الشجن، يغص بمرارة الوجد، كأن السماء تنزل بقيود حديدية تطوق على عنقه، أصفاداً فولاذية تكبل يديه، يشعر برعشة تحاصر جسده من الداخل، قشعريرة شاخبة تلامس أطراف بدنه، ثم يكمل سيره متجهاً إلى المنزل بأفكار تساور رأسه، تتشقلب في ذهنه، متيقناً أن القلوب تحتضن جميع الأشياء، ولا تمسك إلا الهواء، مادام كل ما حولنا عبارة عن تزييف لواقع حي نعيشه، فمقابل ذلك يجب ألا يكون هناك تعلق في الأشياء الزائلة، التشبث بالأشياء الثانية يخلق في داخلنا كائناً آخر، ضعيفاً، منغلقاً على نفسه، لا يقوى على العيش والاستمرارية، كأنه مقيد بأغلال الزمن المحدود، المحسوبة دقائقه

وثوانيه المعدودة.

وصل الفتى بالقرب من المنزل، وقبيل دخوله بلحظات، لمحت عيناه الأشيب يجلس هناك مستنداً على جذع السدرة المطلة على تل " زاخر" ، القريبة من مسكنهم الكائن ما بين خاصرة الهضبة الرملية والسدرة التي لا يسحقها لهيب الشمس، ولا يهزمها هذا الزمن التليد، ولا حتى تتخلى عنها تضاريس " زاخر" ، تقف هكذا كامرأة فارعة، يافعة، متورعة، تحتضن متلهفة كل الذين هاموا، وشاموا، وعاموا في بحور التيه العميق .. يقترب الفتى من الأشيب بعينيه المنكسرتين بما حملت ظنونه في سالف الوقت، مدركاً أن الأشيب حين لم يشاطره في مشاعره نحو سلمى كان يعلم بتلك الجريمة النكراء.
حيث إن الأشيب كان يخرج من المنزل متسرباً خلسة إلى ذلك المكان، حيث تجتمع الخيانة والرذيلة فيه، يشهد تلك الضحكات الغارفة من جذور القلب الماكر، يتطلع إلى جل الأمور التي تخفى عن الفتى الغافل، متعذراً بزيارة صديقه أبو سعود مراوغاً ابنه كي لا يشعر، كانت كل تحركات سلمى يدركها الأشيب، كاتماً غيظه خشية على مشاعر ابنه النازفة من عشق الهوى الزائف، والأمنيات المكلومة.
التفت الأشيب إلى الفتى، أدرك الأمر من عينيه، ثم جلس الفتى بجانبه واضعاً قلبه أمامه، ساكناً عند حافة الألم، محتدماً بسعيره، تتذرع تلك الآمال لظلال السدرة العالية، تتوغل ما بين أغصانها الممتدة، تصطدم بجذورها كل الأحزان المتلاهفه، متآلفة تحت ظلالها الوارفة، يزفر الأشيب حنين العشق في عينيه، مستديراً بجسده نحو الفتى، فاتحاً كلتا ذراعيه، ارتمى الفتى مندفعاً إليه، مقتنعاً بأن لا ضرورة هناك لذريعة الحزن، طالما أصبح الأمر مجرد فترة انتقال روحية من عالم إلى عالمٍ آخر متجدد..
تذوب الأشياء، تنخرط في بعضها بعضاً، ترجع إلى الحضيض، تغوص في لب الأعماق حتى تبدو لا شيء، ولكن تبقى الأحلام مرتبطة بهذا الكون المتصل، كون الإنسان مزيجاً من وحدة الوجود، فهناك ارتباط كلي بين الإنسان ومحيطه الخارجي، حيث إن الارتباط يولد اتصالاً لاشعورياً ما بين العقل والروح الأيديولوجية، فالاتصال الجسمي يبدو موحداً بكل جزيئات الكون المخلوقة، جميع المكونات التي توجد بهذه الأرض تختزل بهذا الجسد ومركباته المحتوية، مما يبدو التحام الكون والإنسان مع الاندماج بروحه الفطرية، تشكلت تلك النجمة المقضومة في حلم الفتى مستوحاة

من واقعٍ ارتبط بمعطيات جينية محتومة الحدث، حيث إن جزء تلك النجمة أشبه بذاك التعلق، التعلق بشيءٍ ما، شيء توطد ذاك الجسد، تلبس مشاعره، ليبقى ملتحماً بتلك الروح التي اقتطفت جزءاً من النجمة، تلوح لألأتها بداخل النفس، تطل عبر شفافيات الزمن، تسترسل وميضها الكائن خلف ستار الوعي المحتوم، وميضها المجزوم، أشبه بالتحام مشاعر الأشيب مستلهمة قدرة الشفافية الغائصة في أعماقه المعجونة بحبيبات الصحراء العريقة، المطحونة بجزيئات ذلك الجزء المقضوم، المهضوم، كأنه الارتباط الكوني يتجدد، يتبدد الحلم شاقاً أتون الروح، متسرباً إلى الواقع رغم التصدعات الزمنية المترامية على رأسه، حتى إن بان المجهول بحجم ذلك الجبل الشاهق، جبل حفيت ..